A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر

وقوانين

القديس باخوميوس

CA
281.7
A872nA
C.1

بقلم

الدكتور عزيز سوريال عطيه
أستاذ تاريخ القرون الوسطى بجامعة فاروق الأول
والأستاذ السابق بجامعات بون ولندن ولفربول

(مستخرج من رسالة مار مينا عن الرهبنة القبطية - ٢٢ مايو ١٩٤٨)

القديس أنبـــا باخوميوس

٢٩٠م — ٣٤٨م

L55-25076

نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر

وقوانين

القديس باخوميوس

١ — مقدمة

تاريخ الرهبانية العام من الموضوعات التى كانت محل بحث وتأليف واسع النطاق فى الدوائر العلمية والتاريخية منذ أن كانت هنالك نهضة فى البحث والتأليف وإحياء تراث المدنية المسيحية . ولا شك أن الفضل فى ذلك يرجع لحد كبير إلى أولئك الجهابذة من الرهبان الذين انزووا عن الحياة الدنيا وما يكتنفها من مسئوليات إلى مكتبات الأديرة حيث عكفوا على الدرس والتنقيب فى ذلك الجو الصوفى، فتضاعف بذلك إنتاجهم إلى درجة تبلغ حد الإعجاز ، والأمثلة الدالة على ذلك عديدة جداً ليس هذا مكان سردها ، ونكتفى فى هذا المقام باقتباس مثالين أو ثلاثة من بين الأعمال الخالدة فى هذا الميدان ، ونخص بالذكر منها مجموعة « حياة القديسين » (Acta Sanctorum) التى بدأ جمعها الإخوان البولانديون (Bollandistes) نسبة إلى مؤسسها (J.Bollandus) سنة ١٦٤٣ بمدينة انتورب فى بلجيكا ، وقد بلغ عدد مجلداتها الضخمة للقديسين الذين تقع تذكارات حياتهم من يناير إلى اكتوبر ٦٢ مجلداً ؛ ثم أعمال الأب مينى (Abbé Minge) الجبارة فى مجموعة الآباء اللاتين (Patrologia Latina) فى ٢٢١ مجلدا والآباء الأغريق (Patrologia Graeca) فى ١٦٥ مجلداً غير المجموعات الأخرى التى لا نستطيع التعرض لذكرها هنا ؛ ضف لذلك مجموعة قوانين الحركات الديرية (Codex Regularum Monasticarum) التى بدأ نشرها هولشتين بروما فى سنة ١٦٦١ .

ولكن الملحوظ فى هذا النشاط الأدبى الفائق . وفيما تلاه من البحوث التى بلغت الألوف المؤلفة فى العدد ، أن عناية الكتاب كادت تكون قاصرة على تاريخ الرهبنة

المسيحية فى أوربا ، دون التعرض إلا بقدر تافه إلى ذلك الفصل الأول الرائع عن تاريخ الرهبنة المصرية فى القرون الخمسة المسيحية الأولى ، بالرغم من أن العالم يدين لمصر بوضع تلك الأسس العتيدة التى بنى عليها واقتبس من قبسها أولئك الآباء الذين يرجع لهم الفضل الأكبر فى توجيه المدنية وبناء الحضارة المسيحية فى العصور الوسطى .

ظل إذن موضوع الرهبنة والديرية المصرية طوال القرون الخالية مجهولا أو كاد إلى أن تنبه لقدره بعض العلماء والمؤرخين والمستشرقين فى الخمسين سنة الماضية على وجه التقريب ، فأخذوا فى التنقيب عن أصوله ووثائقه المتعددة فيما وصل إلينا من ذلك التراث باللغات القبطية والعربية واللاتينية واليونانية ، وما أن تبينت لهم قيمتها حتى سارعوا إلى نشرها نشراً علمياً دقيقاً مصحوباً فى أغلب الأحيان بترجمتها إلى إحدى اللغات الحية ، ومن هؤلاء أمليتو (Amélineau) قديماً ولوفور (Lefort) حديثاً ومن بينهما من الكتاب فى مختلف الدول أمثال لادوز (Ladeuze) وجروتزماخر (Grutzmacher) ووالس (Wallis-Budge) وأيفتس (Evetts) وكاثبرت بطلر (Cuthbert-Butler) وايفلين وايت (Evelyn White) وماكين (Mackean) وغيرهم كثير .

بدأت الأنظار تتجه على هذا الوجه إلى دراسة اصول الرهبنة والديرية المصرية دراسة علمية لأسباب كثيرة ، أولها باعتبارها فصلا من فصول التاريخ المسيحى العام ، وثانيها لأن أنظمة المصريين الديرية القديمة هى الأصل والأساس الثابت المكين الذى ابتنى عليه قادة الأفكار والجماعات الديرية فى أوربا أنظمتهم المألوفة إلى يومنا هذا ، وثالثها هو إحياء تلك الناحية الغامضة من تاريخنا القومى نحن معشر المصريين . وفى هذه المناسبة نجد أنه من واجبنا ان نستلفت أنظار المواطنين — المسيحى منهم وغير المسيحى على السواء — إلى أن دراسة تاريخ آباء الكنيسة المصرية لا يجوز بأى حال من الأحوال أن تعتبر مسألة طائفية بحتة ، بل هى دراسة قومية بكل معانى القومية فى هذا العصر الذى عكف فيه الباحثون المصريون على إحياء تراثنا القومى فى مختلف عصوره منذ أن بزغت شمس الحضارة المصرية على هذا الوادى ، وظلت تنير السبيل إلى العالم المتحضر فى الشرق والغرب قرونا عديدة ، ومن الحقائق المفروغ منها أن تعاليم الآباء المصريين فى هذا الدور من أدوار تاريخنا القومى تعتبر من أكبر المفاخر التى جادت بها القرائح المصرية على العالم المتمدين .

ولكننا بالرغم من تلك الجهود المتصلة فى درس تاريخ الرهبنة والديرية المصرية، لازلنا على عتبة البحث فى هذا الميدان الذى تتجلى لنا يوما بعد يوم سعة أطرافه، وعمق غوره، وتشعب أصوله ومنابعه؛ وأننا مدركون تمام الإدراك تلك الحاجة الملحة إلى تضافر جهود المجتهدين لوضع تلك الدراسات الديرية المصرية فى الأطار اللائق بها، فيأخذ البعض فى مواصلة نشر الأصول، بينما يعكف البعض الآخر على كتابة حياة الآباء أمثال أنطونيوس وباخوميوس ومكاريوس وشنوده وغيرهم، ويأخذ الآخرون بعنان درس الأنظمة والقوانين الديرية وحكومة الكنيسة المصرية فى عصرها الذهبى، تلك الحكومة التى ولد فى طياتها أول مشروع قومى لاستقلال هذا الوطن منذ أن نزلت به النوازل الكاسحة المتتالية فى غزوة قمبيز لمصر سنة ٥٢٥ ق م.

ونحن إذ تصدينا ونتصدى للمحاضرة والكتابة بقدر متواضع فى هذه الموضوعات، ثم إذ دعونا وندعو إلى المشاركة فى بعث هذه الدراسات بقدر أقل تواضعا مما وفقنا اليه، إنما نشعر فى إيمان وصدق بكل تلك العوامل العلمية والوطنية التى تدفعنا إلى القيام بحملة مستنيرة لإحياء هذا التراث المجيد: تراث العلم، وتراث الفكر والحضارة المصرية إنما التاريخ ذكرى، وإن الذكرى تنفع المؤمنين.

* * *

٢ - أصول الرهبنة المصرية

اتفق عامة الكتاب فى تاريخ الرهبنة على أن أصول النظام الرهبانى المسيحى ظهرت لأول مرة فى تاريخ مصر المسيحية خلال القرون الأولى من انتشار هذه الديانة فى العالم المتمدين، كما أنهم اتفقوا على أن مؤسس الرهبنة هو القديس انطونيوس فى القرن الثالث المسيحى فى صعيد مصر الأوسط.

ومع ذيوع تلك النظرية بين جمهور المؤلفين وأخذهم بها، لانرى مندوحة من التحفظ بعض الشىء فى معالجة هذا الرأى، لأن استعراض محتويات الكتب القديمة فى حياة الرهبان فى مصر المسيحية تدل دلالة واضحة على أن بذور التعاليم الرهبانية غرست على ضفاف وادى النيل منذ ظهور الديانة الجديدة بين المصريين، وانتشار المسيحية فى مصر وانتظام كنيستها على أسس ثابتة الدعائم كان أقدم مما تصوّر مؤرخو المدرسة القديمة، فقد ظهر من الكشوف البردية القبطية الحديثة وغيرها أن الناس

أخذوا بقواعد هذه الديانة زرافات فى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى الميلادى ، ولا غرابة فى تهافتهم على اعتناق تلك الديانة واتباع بعضهم النظم الرهبانية فى هذا العصر السحيق ، إذ كانت أذهانهم وأفكارهم وما ورثوه من التقاليد والآراء حتى فى العصر الوثنى المتأخر أساساً لتفهم معنى الديانة الجديدة واستساغة تعاليمها والاقبال عليها بشكل لم يتوفر لسكان الاقطار الأخرى من المسكونة .

لانريد التعرض لتفاصيل هذا الموضوع الواسع لأنها خارجة عن نطاق هذه الرسالة، ولذا فاننا نكتفى فيها بالإشارة إلى بعض الحقائق الأصلية فى الديانة المسيحية وما كان يوازيها فيما وصل اليه العقل المصرى القديم فى نضاله الطويل للوصول إلى قواعد الديانة المصرية فى أدوارها المتأخرة. ففكرة البعث وخلود الروح والثواب والعقاب فى العالم الآخر كانت من أسس الديانتين ، كما أن كثيراً من الأفكار التى انطوت عليها الديانة الجديدة لم تكن غريبة على عقول المصريين ، فالثالوث المقدس فى المسيحية يقابله الثالوث المصرى القديم من أوزيريس وإيزيس وحوريس كما كان هنالك ثواليث أخرى محلية كثيرة ، وفكرة ولادة الإله من عذراء بكر يقابلها كذلك فكرة ولادة الإله آبيس من عجلة بكر تحل فيها روح الإله بتاح، والعماد بالماء المقدس معروف فى الديانتين والصليب الذى هو رمز الحياة الروحية فى المسيحية كان رمز الخلود عند المصريين القدماء ، إذ نرى آلهتهم على الدوام وفى يدهم ذلك الصليب المعقوف الرأس وهو علامة عنخ عندهم. ثم إن الرهبان أيضا سبقت المسيحية بينهم فى العصور القديمة . فلا غرابة إذن فى إقبال المصريين على المسيحية وكذلك الرهبانية دون جهد كبير .

وبالرغم من قلة الوثائق والأصول عن العصر المسيحى العتيق إذا قيس بما كتب فى ذلك خلال القرنين الرابع والخامس ، نجد بعض الأمثلة لوجود التعاليم الرهبانية فى القرن الثانى ، ونذكر من بينها فيما يلى مثالين شهيرين .

الأول أنه فى عهد الامبراطور انطونيوس بيوس (١٣٨ - ١٦١ م) نسمع عن شخص يدعى فرونتونيوس يرحل إلى برية نتريا (وادى النطرون) وفى صحبته سبعون مسيحياً ليعيشوا عيش الرهبان ، زاهدين فى الحياة الدنيا وراغبين فى التقشف والعزلة، كما يظهر ذلك فى « حياة القديسين » (Acta Sanctorum) تحت تاريخ ١٤ ابريل ؛ ويعلق العلامة والس بدج على ذلك بأن تلك الحملة الرهبانية المنظمة لم تكن بطبيعة الحال إلا واحدة من حملات متعددة كانت تحدث تباعاً دون أن تسجلها الكتب

المعاصرة ، وأغلب الظن أن ذلك راجع لحدوثها فى الخفاء بغير ضوضاء أو إعلان لأن الديانة الجديدة وأساسها إنكار الذات وعدم المباهاة بأمثال هذه الضروب من العبادة والتقشف كانت تحض الزهاد والمعتزلين أو الرهبان على الاحتفاظ بأعمالهم سراً مكنوناً لايعلمه إلا فاحص القلوب .

والمثل الثانى أصدق دليل على هذا التعليل ، ويظهر جلياً فى حياة الانبا بولا الذى هرب من الوادى فى الصعيد الأوسط وتوغل فى الصحراء الشرقية إلى أن ألقى عصاه فى إحدى كهوف الجبال المطلة على البحر الأحمر وهو فى سن مبكرة، ومكث بها إلى أن بلغ من العمر عتياً ، إذ يقال إنه مات فى العام الثالث عشر بعد المائة من حياته ، ولولا أن عثر عليه القديس انطونيوس مصادفة فى أعماق الصحراء لظل أمره مجهولا ، ويمكننا الجزم بأن الأمثلة المجهولة من هؤلاء المعتزلة المعاصرين أكثر بمراحل من المعروفة .

وحياة هذا القديس تدعونا إلى التريث عند هذه النقطة لفحصها فى إلمامة سريعة تلقى ضوءاً على نظام هؤلاء المعتزلة من أقطاب الرهبانية المسيحية . ولد الأنبا بولا حوالى سنة ١٥٠ م من أبوين موسرين، وتيتم وهو فى السادسة عشرة ، فتولى الوصاية عليه زوج أخته الذى كان يتحين الفرص للتنكيل به . وقد تثقف بثقافة عصره المزدوجة، تلك الثقافة الأغريقية والمصرية على السواء ، ودرس أصول الدين المسيحى الذى تعلق به ، ولما لاحظ أن زوج أخته قد صمم على تسليمه لأيدى الولاة فى أثناء إحدى موجات الاضطهاد التى كانت تجتاح المسيحيين فى العصر الرومانى ، قرر بولا أن يهجر العالم ويتوجه إلى الصحراء حيث يعتزل الخلق إلى عبادة الله ومزاولة حياة التقشف الرهبانى ، وأخيراً وصل فى تجواله إلى المنطقة التى بنى فيها الدير الذى حمل اسمه فيما بعد إلى اليوم ، ويقال إن القديس أنطونيوس وجده هنالك وتحدث إليه قبيل وفاته التى وقعت كما يخبرنا المؤرخ بلاديوس فى أيام ديسيوس وفاليريانوس ، وكلاهما من أباطرة الرومان ، الأول حكم من سنة ٢٤٩ إلى سنة ٢٥١ والثانى من ٢٥٣ إلى ٢٦٠ م، أى أنه مات ما بين سنتى ٢٤٩ و ٢٧٠ م . وأغلب الظن أن أنطونيوس الذى ولد حوالى منتصف القرن الثالث كان شاباً حديث العهد بالحياة الرهبانية وقتئذ على نقيض ماجاء فى الرواية المألوفة من أنه كان يبلغ من العمر تسعين عاماً عندما تلاقى مع الأنبا بولا ، وإذا سلمنا بأن هذا الأخير عاش حقيقة ١١٣ عاماً حسب رواية بلاديوس فلا بد أن يكون ميلاده على وجه التقريب فى منتصف القرن الثانى . وفى كتاب البستان

من قلم بلاديوس المذكور وصف طريف للكهف الذى كان يقيم فيه بولا ، ونظامه المعاشى، وأسلوبه فى العبادة ، وشخصيته ، وكيف قضى نحبه فى سلام . فالكهف الذى اهتدى إليه كان واسعاً من الداخل ذا فوهة صغيرة يغلقها بحجر كبير ، ويمتاز بنظافته الفائقة وانبساط أرضه ونعومة التراب المنثور عليه ، وبجوار الكهف بعض النخيل الذى كان يقتات بثمره ، ويرتدى برداء من الليف الذى يجمعه منه ، وقد وجد بولا فى هذا المكان ذاك السلام الشامل والحياة الكاملة التى كان ينشدها، وعاش قرابة تسعين سنة فى هذه البقعة الموحشة ، ولكن هذه الوحشة لم تؤثر على حلاوة شخصيته كما يتضح من رواية لقائه مع القديس انطونيوس ، وكان يقضى أيامه ولياليه فى التعبد والصلاة والتأمل الهادىء ، فلما رقد إلى الأبد فى أثناء الصلاة وأنطونيوس على مقربة منه احتار فى أمر دفن جثتـــه لأن أرض الجبل الذى كان يعيش عليه صخرية، وهنا يروى بلاديوس قصة الأسدين الذين ظهرا وحفرا الحفرة التى أنزل فيها جسد القديس بعد أن استولى انطونيوس على ردائه الليفى وحمله معه .

قصارى القول إن أصول الرهبنة فى مصر بعيدة الغور ، وتاريخها أقدم من تاريخ القديس انطونيوس ، ولكنها فى بدايتها لم تكن من نوع الحركات الاجتماعية العامة المنظمة ، وإنما أخذت وضعها الثابت المعروف ، وصبغتها العالمية الواسعة النطاق ، على يدى الأنبا انطونيوس الذى تطورت فى عهده ذلك التطور التاريخى حتى أصبح المؤرخون ينعتون هذا الدور من أدوار تاريخها باسم « الرهبنة الأنطونية » نسبة اليه .

* * *

٣ - الرهبنة الانطونية

يمكن القول بأن هذا هو الدور الحق من أدوار تاريخ الرهبنة المصرية بشكلها المألوف ، ذلك لأن ماسبقه فى الواقع يجب اعتباره بمثابة مقدمات مرتجلة مهدت لهذا النظام الجديد ، وإن كانت هذه الأدوار الأولى متداخل بعضها فى بعض ، لانستطيع رسم حدودها المضبوطة فى نقط ثابتة معينة ، دأب الأنظمة والحركات التى تنمو نمواً طبيعياً تبعاً لظروف الأحوال . ولب الرهبنة الأنطونية فى عهدها الأول كان ينطوى على العزلة الفردية التامة ، وإغراق الراهب فى ضروب الزهد ، ومبالغته فى التقشف والصوم وتعذيب الجسد لخلاص الروح . وربما كانت حياة القديس انطونيوس ذاتها

من أبلغ المثل لهذا النوع من الرهبنة ، وقد كتب عنها فى تفصيل القديس أثناسيوس بطريرك الاسكندرية وأسقفها الذى تزاور معه وعلم الشيء الكثير عنه .

ولد الأنبا أنطونيوس حوالى منتصف القرن الثالث الميلادى فى مدينة كوما أو هرقليوبوليس بمصر الوسطى من أبوين مسيحيين ، وكان والده مشتغلا بالفلاحة ومن ذوى اليسار والجاه يملك مزرعة واقعة فى وادى النهر الخصيب تبلغ مساحتها ثلاثمائة فدان . وعاش أنطونيوس فى بيت أبويه عيشاً مترفا بعض الترف ، وتعلم منهما قواعد الدين المسيحى ، وإن كان من المحقق أنه لم يأخذ بأى قسط من التعليم الدنيوى العام ، إذ أن المعروف عنه أنه ظل أمياً لا يعرف القراءة أو الكتابة لآخر أيامه ، ولم يتصل بالثقافة اليونانية أيما إتصال ، فظل مصرياً صميما فى طبعه وفى تفكيره . وحوالى سنة ٢٧٠م بينما كان فى العشرين من عمره ، توفى أبوه تاركا له مع تلك الثروة العريضة أختاً صغيرة يقوم على تربيتها ، والعناية بشئونها . غير أن أنطونيوس الذى استهوته قواعد العقيدة المسيحية كان كثير التردد على كنائسها ، وبدأت تظهر عليه أعراض الاستخفاف بالحياة الدنيا ، حتى أنه فى ذات يوم عندما كان فى الكنيسة سمع الكاهن يعظ الشعب مردداً قول الكتاب المقدس بأن المرء إذا أراد الكمال وجب عليه أن يبيع مايملك وأن يوزعه على المعوزين ليكسب بذلك ملكوت السموات . فاعتبر أنطونيوس هذا الكلام موجها اليه من الله ، وسارع إلى إجابة الدعوة ببيع ممتلكاته إلا مايكفى لسد رمق أخته ، ووزع قيمتها على المساكين والمستورين . وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى قرر بيع البقية الباقية أيضا لتوزيعها على الفقراء عندما سمع الكاهن مرة أخرى يردد الآية القائلة « لاتهتم بالغد ، بل اجعل الغد يهتم بنفسه ، يكفى اليوم شره » . ثم عهد بشقيقته إلى جماعة من العذارى اللواتى دأبن على الاجتماع بحرم الكنيسة للتعبد وتدريب النفس على القداسة ، ورحل هو إلى سفوح الجبال الشرقية المتاخمة لحافة الوادى بعد أن عبر النهر ، وهناك بنى لنفسه صومعة أنفرد فيها ، وكان أحيانا يخرج منها ليبحث عمن سبقوه إلى العزلة والتقشف لكى يتلقى عليهم دروسه الأولى فى الرهبانية ، وهكذا أخذت منه هذه الحياة الجديدة كل مأخذ ، فجعل يتوغل فى الصحراء شيئاً فشيئا للابتعاد ما أمكن عن سكان الوادى ، وظل يواصل سعيه حتى استقر نهائياً فى الجبال الواقعة قرب ساحل البحر الأحمر ، وعاش بقية أيامه فى كهف على قلة جبل قرابة الدير الذى يحمل اسمه إلى اليوم ، ومات حوالى سنة ٣٥٥ م وعمره آنئذ

١٠٥ من السنين بعد أن طلب إلى تلاميذه أن لايحنطوا جسده على طريقة أسلافه من المصريين وأن يدفنوه فى مغارته .

ولم ينزل القديس انطونيوس فى مدة الخمسة والثمانين عاما التى قضاها فى تلك البقعة إلى الوادى على مانعلم إلا مرتين عند ماشعر بأن اخوانه فى الدين هنا لك بحاجة إلى هدايته ومساهمته فى تشجيعهم عندما حاقت بهم المحن الكبرى التى منيت بها المسيحية فى أوائل عهدها بمصر . أما المحنة الأولى فهى ذلك الاضطهاد الكاسح الذى أنزله الامبراطور الرومانى مكسيمينوس بمسيحيي مصر سنة ٣١١م ، فلم يجد القديس بدأمن الخروج عن عزلته ليشد أزر المؤمنين ويقويهم فى أمانتهم لما بلغ الاضطهاد أوجه ؛ فكان يزور السجون ، ويتنقل فى المدائن معرضا حياته لأشد المخاطر فى شجاعة ورباطة جأش . والمحنة الثانية جاءت عند استفحال هرطقة اريوس الكاهن السكندرى فى أثناء حكم الامبراطور قسطنطين الكبير ، فهبط انطونيوس من الصحراء الشرقية إلى المدن المصرية سنة ٣٣٨ لكى يساعد القديس اثناسيوس فى كفاحه الدامى ضد الهراطقة من أتباع اريوس ، ولا شك أن شخصيته كانت من أكبر الدعامات فى رد المصريين إلى حظيرة الإيمان المسيحى الحق وكبت هذه الضلالة أو البدعة الجديدة .

أما نظام حياة القديس فى عزلته فكان بسيطا بالرغم من إغراقه فى التقشف ، يتناول القليل من الخبز المجفف وبعض الملح ولا يشرب غير الماء ، وكان إفطاره فى معادة مرة واحدة عند غروب الشمس ، وأحيانا كان يمضى ثلاثة أيام أو أربعة فى صيام كامل عن الطعام والشراب ، وقيل أنه كان فى بعض الأوقات يمد فترة الصيام التام حتى تبلغ عدة أسابيع . وكان يقضى لياليه ساهراً مصليا ، فاذا نام كان نومه على حصيرة من سعف النخيل . ولم يغتسل فى حياته الرهبانية أبداً ، كما أنه لم يدهن جسده بالزيت . وكان رداؤه عبارة عن فروة غير مدبوغة يلبسها مقلوبة لكى يقع شعرها على جسده إمعانا فى تعذيب نفسه بخشونتها . ولم يكن يتدثر بغطاء فى نومه إلا بعد أن أسنّ وأخذ منه الضعف مأخذه فكان يضع فوقه إحدى الفراء .

أما شخصيته فقد أطال فى وصفها القديس اثناسيوس . كان حليما لايغضب ، بلغ من الحكمة وعمق التفكير مع بساطته مبلغاً رائعاً ، وأسلوبه فى الكلام كان واضحاً وقوياً ومقنعاً بالرغم من أنه كان أميا ولم يتكلم سوى اللغة المصرية ولم يدرس علوم الإغريق وفلسفتهم ، وكان ذهنه حاضراً وقريحته وقادة كما يظهر من جدله مع من زاره فى عزلته

من فلاسفة اليونان وحكماء الوثنية ، وظل إيمانه بعقيدته ثابتا كالصخر ، كما بقيت نفسه هادئة تشع السلام على من حواليها ، وكان شفيقا بالنـــاس ، رحيما بهم ، قادرا على معالجة مايصادفهم من الأزمات الروحية بدون أن يقسو عليهم ، أو يبعث اليأس فى نفوسهم ، واسع الإدراك ، محبوباً من الجميع على السواء .

لاغرو إذن أن تجتذب مثل تلك الشخصية الفذة الحلوة أعداداً كبيرة من الرهبان الذين تتلمذوا عليه ، وأصبح هو فى نظرهم المثل الأعلى للحياة الكاملة ، يقتدون به ، وينسجون على منواله ، حتى أن الصحراء أصبحت تعج بجماعاتهم فى جبالها الشرقية . ولكن النظام الأنطونى ظل فى أساسه نظاما فردياً ، أساسه العزلة والتقشف والصوم ، لأن تعذيب الجسد والحرمان كان فى نظرهم الوسيلة المؤدية لنجاة النفس وخلاص الروح وكان الأخوة من أتباع انطونيوس يتنافسون فى هذا الميدان ، إلى حـــدود تفوق حد الحسبان.

غير أن نظام العزلة التامة الذى زاوله هؤلاء الجبابرة من المتوحدين كان مصيره الطبيعى أن يتطور تطوراً بطيئاً إلى نوع من الرهبنة الاجتماعية المخففة لمجابهة الصعاب المادية والروحية التى كانوا يتعرضون لها فى تلك القفار ، وأخذت بوادر هذا التطور فى الظهور رويدا رويدا حتى فى أثناء حياة القديس انطونيوس ذاته .

* * *

٤ - الرهبنة الاجتماعية

تعتبر الرهبنة الاجتماعية (Collective Eremiticism) الدور الثانى فى تطور الأنظمة الرهبانية المسيحية المصرية ، وهى المرحلة المتوسطة بين التعاليم الأنطونية الأولى وقوانين الديرية الباخومية . ولا شك أن هذا التطور كان امرا انسانيا طبيعياً فى الظروف القاسية التى كانت تحيط بالمتوحدين الذين عمدوا إلى انتزاع أنفسهم انتزاعا كاملا من كل الصلات البشرية ، ولم يحسبوا للمخاوف والأخطار التى كانت تتهددهم أى حساب . فمن الناحية المادية وجدوا أنهم يعيشون فى صحراء جرداء ، تندر فيها ينابيع الماء ، وتكاد تكون خلوا من موارد الغذاء ، ولابد لهم من الارتحال أميالا عدة لكى يحصلوا على مايسد رمقهم من المأكل والمشرب مهما كان قليلا ، فاذا نزلت بأحدهم نازلة المرض وعجز عن التنقل ، كان مصيره الموت المحقق ، ثم ان الصحراء إلى جانب

ذلك كانت تجوس جنباتها الحيوانات الضارية ، ويجوب أكنافها قطاع الطرق من أهل البادية وانصاف المتوحشين، وكلاهما لا تعرف الرحمة لقلبه سبيلا . أما من الناحية الروحية فقد كان المتوحدون ولا سيما البادئون منهم فى سلم الرهبنة يتعرضون لأزمات نفسية عنيفة تودى بكيانهم المعنوى ، ولدينا أمثلة — وإن كانت قليلة — من الرهبان الذين أصابهم الجنون، فكفروا بكل شىء وعادوا إلى المدينة يعيشون فيها عيشة غير طبيعية بعد أن قضوا أعواماً فى جوف الصحراء على الكفاف وقتل الغرائز الإنسانية والتقشف والتأمل والصراع مع أنفسهم ، ونذكر من بين هؤلاء فالنس (Valens) الفلسطينى وبطلميوس المصرى.

كان إذن من الطبيعى لهؤلاء المتوحدين أن يفكروا فى التخفيف من عزلتهم بعض الشىء تدفعهم لذلك الغريزة البشرية لحب البقاء ، فأخذوا فى تركيز صفوفهم فى مناطق معينة حول الشخصيات الكبرى من الآباء الروحيين ، ليتتلمذوا على أب لهم فى الروح اشتهر بالقداسة والعلم بأصول الديانة والتفقه فى الكتب المقدسة ، وليسترشدوا بتعليمه ويتشبهوا به فى قدسيته ، وإن كان كل منهم لازال يحافظ على حياة التوحد التى وهب نفسه لها فى مغارته أو قلايته دون أن يتعرض له جاره ، أو يقطع عليه أحد زملائه حبل التفكير والتأمل والعبادة . ولكن مغاورهم وقلاليهم كانت قريبة بعض القرب من بعضها ، تقوم حوالى قلاية أبيهم الروحى . وبهذه القربى أيضا يتغلبون على الصعاب المادية التى كانت تواجههم ، فاذا ما نزلت بأحدهم نازلة المرض أو كارثة غير منظورة، كان له من جيرانه من الإخوة عون فى الشدائد والنوازل. وهم فى نفس الوقت يجتمعون إلى أبيهم الروحى بين آونة وأخرى ليشد أزرهم ، ويحسن توجيههم ، ويساعدهم فى التغلب على أزماتهم النفسية .

وهنا لك عامل آخر دفعهم إلى هذه الحياة الاجتماعية المخففة ، هو الاضطهادات الدينية التى كانت الحكومة الامبراطورية تثيرها ضد المسيحيين للقضاء عليهم . فنجد أن المتوحدين بعد اضطهادات ديسيوس ودقلديانوس على وجه أخص يجمعون صفوفهم عند اللزوم للدفاع عن أنفسهم ، ومهما يكن من أمر هؤلاء الرهبان المسالمين ، فإن كثرة أعدادهم - وقد بلغت الألوف المؤلفة - وهم مسلحون بعصيهم الثقيلة إنما كانوا يكونون جيشا لا يستهان به ، ولا تستطيع أى حكومة ان لا تقيم لخطرهم على عمالها اى وزن

وأهم المناطق التى تركزت فيها جماعات الرهبان بصحراوات مصر الشرقية والغربية نذكرها فيما يلى :

١) منطقة بسبير (Pispir) فى الصعيد الأوسط ، ومن الصعب تحديد مكانها بالضبط ، إلا انه يقال إنها كانت واقعة فى الجبال التى تبعد بعض أميال عن الحافة الشرقية للوادى على مقربة من مدينة بنى سويف . وهى المنطقة التى بدأ فيها القديس أنطونيوس حياته الرهبانية الأولى ، ثم انتقل منها إلى الجبال النائية المطلة على البحر الأحمر ، وتبعه إلى بسبير فما وراءها عدد هائل من الرهبان الذين اجتذبتهم شخصيته فسعوا إلى التتلمذ عليه وعاشوا فى رعايته الروحية ، وقد ازداد عددهم إبان حياته وفى شيخوخته حتى بلغوا الألوف ، وهنالك وصف أدبى رائع للصحراء التى ازهرت بهم فى كتاب « تجاريب القديس أنطونيوس » (Les Tentations de St. Antoine) من قلم الكاتب العظيم جوستاف فلوبير (Gustave Flaubert) ، وهذا الكتاب وإن يكن من الآثار الأدبية التى قد يصطدم فيها الخيال ببعض الحقائق التاريخية ، إلا أنه يصور لنا الحياة العامة للزهاد والنساك فى ذلك العصر وفى تلك المنطقة فى صور من أجل وأروع ما انتجته أقلام المؤلفين فى هذا النوع من القصص التاريخى .

٢) منطقة « جبل نتريا » أو وادى النطرون وكانت تعرف أيضا باسم برية شيهات التى هب اليها المتوحدون منذ أقدم العصور المسيحية فى القرنين الثانى والثالث ، وتقع الآن إلى الغرب من منتصف الطريق الصحراوى الحديث بين مصر والاسكندرية تقريبا حيث يوجد على مقربة منها إلى اليوم دير البراموس الشهير من مؤسسات القرنين الرابع والخامس ، ويروى الكاتب بلاديوس الذى زار هذه المنطقة حوالى سنة ٣٩١ م أنه وجد هناك خمسة آلاف راهب يعيشون مع بعضهم مثنى وثلاثا وفى جماعات صغيرة ، غير ستمائة ناسك يعيشون فرادى داخل الصحراء .

وكانت هذه المنطقة تنقسم إلى ثلاثة مراكز رهبانية : أولها جبل نتريا (Nitria)، وثانيها مستعمرة القلالى (Cellia) ، وثالثها الاسقيط (Scetis) على التوالى من الشمال إلى الجنوب منحرفة صوب الشرق قليلا . ويعزى الفضل فى تأسيس الأولى إلى آمون الذى نزح إلى تلك المنطقة حوالى عام ٣٢٥ م ، بعد أن عاش ثمانية عشر سنة فى منزل الزوجية بالاسكندرية ، وقصة زواجه قسرا وإقناعه زوجه أن تحيا معه حياة التبتل

والعبادة سرا طوال هذه الفترة مشهورة . أما المركز الثانى فقد نشأ حول أبى مقار الكبير الذى ولد بالاسكندرية فى فجر القرن الرابع ، ثم مال إلى النسك فأخذ يتوغل فى صحراء مريوط (Mareotis) إلى ان استقر فى جهة القلالى وعرفت بهذا الاسم لأن أتباعه تكاثروا حواليه وبنى كل منهم لنفسه قلايته فى جواره ليتتلمذوا عليه ، وقد اشتهر أبو مقار بسبقه المضطرد لغيره من النساك فى ضروب التقشف وتعذيب النفس وإنكار الذات حتى اصبح لا يتناول من الطعام اكثر من ثلاث او أربع اوقيات من الخبز الجاف ومن الماء مالا يربو عن حاجته فى ابتلاع هذا الكفاف ، وكان يعرض نفسه طوال يومه لشمس الصحراء المحرقة ، ويمنع نفسه من النوم يقضى طوال ليله فى العبادة ، فلما اكتظت القلالى بالرهبان من حواليه ، هجرها الى المركز الثالث وهو الاسقيط وكان أشد وعورة من سابقيه ، وتبعه الى هنالك عدد محدود من تلاميذه المقربين له والمعجبين به .

وكانت الحياة فى تلك المنطقة كما يصفها الرحالة والحجاج حياة اجتماعية استقلالية تذكرنا بعض الشىء بالمؤسسات الباخومية التى سنتكلم عنها فيما بعد ، فقد كان بين الأخوة عدد من الخبازين الذين يعدون الخبز للرهبان ، وعدد من النساجين الذين ينسجون الثيل للبوسهم وكذا الزارعون وصناع النبيذ من الكرم الذى ينبتونه . كما كان بعض التجار يرتادون هذه المنطقة لشراء مايزيد على حاجة الرهبان ، وكان بينهم الأطباء للعناية بالمرضى ؛ أما حياتهم الدينية فكانت موضع الاعجاب ، إذ أن بلاديوس الذى كان يسمع ترتيلهم المزامير إذا ما أرخى الليل سدوله قد سما به الخيال إلى أن تصور انه انتقل من هذا العالم إلى « جنة عدن » ، وقد بنى الأخوة كنيسة عظمى فى وسط المنطقة يجتمعون بها للصلاة معا ولتناول العشاء الربانى فى يومى السبت والأحد من الأسبوع ، وفى ساحة هذه الكنيسة ثلاث من شجرات النخيل علق بكل منها سوط ، الأول لعقاب الخطاة ، والثانى لضرب اللصوص ، والثالث لجلد الأغراب الذين يحيدون عن قواعد الجماعة .

٣) منطقة البهنسا وهى التى كانت تعرف فى العصر الرومانى باسم اوكسيرنكس (Oxyrhynchus) فى الصعيد الأوسط على مسافة ١٢٥ ميلا جنوب القاهرة كانت من المستعمرات أو المدائن الرهبانية الكبرى ولا تزال إلى اليوم مصدراً من المصادر الرئيسية للآثار القبطية الرومانية ، وجاء وصفها فى « تاريخ الرهبان » المنسوب إلى هيرونيموس (Hieronymus) أنها كانت تعج بجماعات الرهبان ، فى داخلها خمسة آلاف ، وفى خارجها خمسة أخرى ، يستمع الزائر إلى أصوات العبادة والتراتيل الدينية

بها وهى تملأ عنان السماء أناء الليل وأطراف النهار، وأعجب من هذا أنه كان بها أسقف فى رعاية عشرين الف راهبة من العذارى ، وهذا التقدير مع مافيه من المبالغة الواضحة إنما يزودنا بفكرة عامة عما بلغته الحركة الرهبانية من التوسع فى القرون الأربعة الأولى من تاريخ المسيحية فى بلاد مصر .

٤) منطقة ليكوس (Lycus) بالقرب من أسيوط وقد أمها خلق عظيم اجتذبتهم إليها العجائب التى كان يصنعها الناسك يوحنا النجار المولود سنة ٣٠٤ م والذى نزح للزهد فى جبل ليكوس سنة ٣٣٠ حيث أقام إلى أن مات سنة ٣٩٤ . وقد اشتهر بين معاصريه بنعمة التنبؤ بالغيب وصنع المعجزات حتى ذاع صيته فى أقصى المسكونة ، وسعى إلى الأخذ بمشورته أناس من جميع الطبقات ومن بينهم الامبراطور ثيودوسيوس المتوفى سنة ٣٩٥ . ومن ضروب الزهد التى كان يمارسها القديس يوحنا أن عاهد نفسه ألا يتناول من الطعام ما كان مطبوخا على النار بما في ذلك الخبز ، فكان زاده قاصرا على الأعشاب المجففة .

٥) منطقة انتينوى (Antinoë) التى تقع مكانها قرية الشيخ عباده على ضفة النيل الشرقية ، وهى التى زارها الرحالة بلاديوس ما بين سنة ٤٠٦ وسنة ٤١٢ ، وقضى بها أربعة أعوام كاملة يتنقل فى أرجائها نظرا لكثرة من سكنها من النساك ، ففى حدود المدينة وجد اثنى عشر ديرا عامرة بالراهبات ، وخارجها الف ومائتى راهب دائبين فى الأعمال اليدوية لسد حاجاتهم المعيشية ، وعائشين عيشة الزهد والنسك والتبتل والقناعة . ويذكر هيرونيموس أنه كان يأوى صحراءها المقفرة رجل قديس اسمه إيليا بلغ من العمر مائة وعشر سنة قضى هنالك منها سبعين عاما متوحدا يقتات على ثلاثة دراهم من الخبز وثلاث زيتونات يوميا ، وقيل إنه فى صباه كان يكتفى بأكلة واحدة كل أسبوع .

ويلاحظ من تلاوة تاريخ النساك والمتوحدين أنه وإن لم تكن هنالك قواعد مكتوبة يسيرون عليها فى حياتهم الرهبانية ، أو نظام موضوع يرسم لهم خطة معينة يتبعونها كما سنرى فى قوانين باخوميوس ، إلا أنه كانت هنالك تقاليد وعادات مرعية ألفوها واستوحوها من آبائهم الروحيين ، وجعلوها أساسا لاجتهادهم فى ميدان النسك وفى مقدمة هذه العادات أو التقاليد الهروب من وجه الناس إلى التوحد والبتولة وحياة الفقر المطلق والطاعة وتدريب النفس على الاحتمال والصبر والمحبة والصدق فى المعاملة

وكان النساك يتبارون فى الصيام ، وعلى كل حال كان المفروض أن لا يتناول الراهب غير الخبز المجفف وبعض الملح مرة كل يوم ، وفى بعض الأحيان كان البعض يسمحون لأنفسهم بأكل الخضراوات المسلوقة والفاكهة والعسل البرى متى وجد ، أما اللحوم فكانت محرمة كل التحريم ، وكان النبيذ غير مرغوب فيه ، واقتصر مشربهم على قدر من الماء . أما ملبسهم فكان من فراء الماعز غير مدبوغة ومقلوبة بحيث تقع خشونة الشعر على أجسادهم ، ولكنهم أحيانا كانوا يرتدون رداء مصنوع من التيل الخشن . وكان نومهم على حصيرة من سعف النخل ، إلا أن الكثيرين كانوا يفضلون الانبطاح على الأرض العارية أو على العشب والحشائش كما كان البعض يعرضون أجسامهم للعرى فى شمس الصيف المحرقة وبرد الشتاء الزمهرير . وكان السكوت التام والتزام القلالى أو المغاور للصلاة والتأمل من الضرورات الملازمة للناسك ، وإحلال العبادة محل النوم أمر مألوف بينهم عموما ، وقد ذهب القديس ارسانيوس إلى القول بأن نوم ساعة واحدة فى الليل تكفى الناسك . والصلاة عند المتوحدين اصطحبت عادة بالحزن العميق وأحيانا بالبكاء وصرير الأسنان . ويقترن احتقار الناسك لهذا العالم باظهار المحبة المطلقة لبنى الانسان والحيوان على السواء . وقد لوحظ على كثير من المتوحدين شغفهم بالحيوان حتى الضارى منه حتى أنست الوحوش لهم ولم تفزع من رؤيتهم . ولكن يجب أن نتذكر على الدوام أن هذه القواعد العامة من قبيل الاستنباط فحسب ، وأن المتوحدين كانوا يمارسون العبادة كل على طريقته الخاصة وهم يتسابقون فى ميدان البطولة الروحية وإذلال البدن والحرمان وكبت الغرائز والتقشف والإمعان فى الوحدة . والمتوحدون عادة لم يكن من قواعدهم العمل اليدوى ، كما كانوا يربأون بأنفسهم عن مطالعة الكتب أو اقتنائها خلافا لما سنبديه فى صدد قوانين باخوميوس ، ذلك لأن الناسك كان فى غنى عن الاسترشاد بالكتب ، وإنما كان الاسترشاد بالله وحده عن طريق التأمل والعبادة والصلاة وإعلاء الفكر والروح إلى الأبراج السماوية . وليس شغل الناسك هو القراءة أو العمل اليدوى . وكان الناسك عادة قبل الحركة قابعاً فى عقر مغارته يقضى فيها السنين الطوال دون الخروج منها ، معتمداً على أهل البر فى إيصال حاجات الجسد من مأكل بسيط إلى بابه . والعجب العجاب هو أن أولئك الزهاد كانوا يعيشون أعماراً طويلة تتجاوز القرن فى أمثلة لا تعد ولا تحصى .

* * *

٥ - قوانين باخوميوس والحياة الديرية

تعتبر الديرية الباخومية ثالث الأدوار الكبرى وخاتمتها فى تطور الحياة الرهبانية فى مصر التى اصطلحوا على تسميتها بحياة الشركة. وللمرة الأولى فى تاريخ الرهبنة نسمع عن أديرة منظمة ذات قوانين وضعية، ونظم محبوكة، تخضع لها الجماعة كبيرها وصغيرها. وهذا الفصل الجديد فى تطور التعاليم الرهبانية من أروع الفصول وأهمها فى كل تاريخها السابق واللاحق، سواء فى ذلك مصر المسيحية أو أمم الشرق والغرب بلا استثناء. ولكى ندرك كنه هذه التعاليم الفذة، لابد لنا من دراسة حياة القديس باخوميوس بالقدر الذى تؤهلنا له الأصول والوثائق التاريخية وهى قليلة ومتضاربة، لأن فى هذه الدراسة مفتاح ذلك النظام الذى طلع به على العالم.

ولد باخوميوس فى بلدة كينوبوسكيون (Kenoboskion) بمنطقة طيبة، ويقال إن مكانها الآن بلدة قصر الصياد الواقعة فى مديرية قنا بصعيد مصر الأعلى، وكان ميلاده على وجه التقريب فى سنة ٢٩٠م أو على وجه التحقيق ما بين سنتى ٢٨٥، ٢٩٥ من أبوين وثنيين، ومن ذلك نستنتج أن باخوميوس قضى سنيه الأولى فى التقاليد والعبادات الوثنية، ولكننا لا نعلم تمام العلم كيف تربى باخوميوس فى صباه، إذ أن كل ما وصل الى علمنا بعدئذ هو أنه انخرط فى سلك الجندية الرومانية وهو فى سن العشرين، واشترك فى الحروب التى أثارها الامبراطور مسكيميانوس على قسطنطين سنة ٣١٠، ولكن هذه الحملة كانت قصيرة الأجل لاندحار الأول وقتله فى نفس السنة بأمر قسطنطين، وبذلك انصرف باخوميوس الى الحياة المدنية، ومع أن خدمته الحربية كانت مقتضبة على هذا الوجه، إلا أن تأثيرها فى حياته كان بالغا الى أقصى حد. وأول آثارها انها أخرجته من الجو الوثنى الذى كان يعيش فيه ببلدته، واتاحت له فرصة الاختلاط والتعرف بالمسيحيين وعاداتهم ودينهم فى مناطق اخرى. وقد حدث ان الكتيبة التى كان يعسكر بين افرادها ذهبت الى مدينة لاتوبوليس (Latopolis) وهى إسنا الحديثة، فخرج سكانها الى الجند يطعمونهم ويقضون حاجاتهم فى دعة ودماثة خلق، فتعجب من ذلك باخوميوس وسأل عن هؤلاء الناس الذين اكرموهم كما لو كانوا أهلا لهم وليس بينهم سابق معرفة، فقيل له إنهم مسيحيون، فما ينصرف عن الجندية الا وعكف على دراسة قواعد هذا الدين الجديد، وانتهى الأمر به الى اعتناقه المسيحية فى سنة ٣١٤

وبذلك وجدت الديانة الجديدة واحدا من أكبر زعمائها . غير ان الحياة العسكرية كان لها اثر آخر فى تكوين شخصية باخوميوس، فتعلم فيها النظام والطاعة والعيشة الاجتماعية والعمل البدنى مما نلحظه من الصفات التى امتازت بها قوانينه الرهبانية فيما بعد .

ثم ملكت عليه تلك الديانة كل مشاعره حتى قرر ترك العالم، واعتنق الرهبانية ، وتبع القديس بلامون وتتلمذ عليه ، وحاول بلامون بادىء ذى بدء أن ينهى باخوميوس عن حياة النسك والتوحد لأنها حياة قاسية محفوفة بالأتعاب والآلام التى تعدو حدود التصور ، ثم وضع له بلامون نظامه مبدياً أنه لا يتناول من الطعام إلا كسرة واحدة من الخبز الجاف مع قليل من الملح مرة يومياً فى أثناء الصيف ومرة فى كل يومين من فصل الشتاء ، وأنه لا يستعمل الزيت ولا يشرب النبيذ ، وأنه يقضى نصف الليل أو الليل برمته فى ترديد المزامير والكتب المقدسة. ثم نصحه أن يفكر طويلا قبل الأقدام على هذا النوع من العيش لأن كثيرين قبله ظنوا أنهم يستطيعون ممارسته ، ولكنهم ارتدوا ، والردة أمر غير مرغوب فيه لأن من وضع يده على المحراث لا يجب أن ينظر إلى الوراء . لكن باخوميوس طلب من المعلم أن يطلب إلى السيد المسيح أن يهبه الجلد والقوة لكى لا ينوء كاهله بهذا العبء الفادح ، وأن يساعده على ممارسة حياة النسك حتى الموت . عندئذ قبله بلامون تلميذاً له . وقد كان دور التلمذة عنيفاً فى مجمله ، مليئاً بتعذيب الجسد والصيام وسهر الليالى ، وقيل إن بلامون وجده فى ليلة من الليالى وقد أخذته سنة من النوم ، فأيقظه وأخرجه من قلايته وكلفه بأن يقضى بقية الليل فى نقل أكوام الرمل من جانب من الصحراء إلى جانب آخر ، قائلا له اجتهد فان العمل والجهد البدنى يدفع الشيطان عن إفساد ثمرة أتعابك . وكان باخوميوس موضع إعجاب أستاذه الذى رضى فى النهاية عما وصل إليه تلميذه من السمو ودرجة الاعتماد على النفس ، فطلب اليه أن يذهب ليحيا حياته فى وحدة تامة وأن لا يتلاقيا بعد الآن إلا دفعة واحدة فى السنة الواحدة . ويقال إن الفترة التى قضاها فى رعاية بلامون سبعة أعوام كاملة .

انصرف باخوميوس عندئذ إلى جهة مقفرة فى منطقة طابنا (Tabenna) بالقرب من قنا فى مواجهة دندره ليواصل فيها حياة التقشف والتوحد ، وكان كفاحه فيها شديداً ، وقيل إنه مرة قضى أربعين ليلة متوالية دون أن يذوق طعم النوم ، عاكفا على العبادة والصلوات . وأخيراً تقول الأساطير الدينية إنه قد جاءه الوحى من

الروح القدس على يد ملاك أنبأه بأنه أتم فترة التجربة كاملة ، وأنه لاحاجة له بالبقاء في مكانه ، بل عليه أن يتجول في القفار ليجمع الأخوة المتوحدين ، والنساك الذين يهيمون على وجوههم في الأرض ، وأن يسكنهم معا في دير يقام لهم ، وأن يخضع الجميع لقانون واحد . ثم دفع له الملاك بلوح نقشت عليه الوصايا التي يجب على الأخوة أن يسيروا بموجبها وعددها ستة ، والكلام فيها موجه في صيغة الأمر إلى باخوميوس ، ننقلها فيما يلي مع قدر قليل من التصرف :

(١) دع الرجل (والمقصود الراهب) يتناول من المأكل والمشرب مايشاء ، وعلى قدر قوة هؤلاء (الرهبان) ممن يأكلون ويشربون تلزمهم بالعمل ؛ ولا تنهاهم لا عن الأكل ولا عن الصوم ؛ أما الضعفاء والصائمون فتطالبهم بالأعمال الخفيفة .

(٢) وعليك أن تقيم لهم القلالي يسكنونها معا ثلاثة ثلاثة .

(٣) وعليهم جميعا أن يتناولوا الطعام معا في قاعة واحدة .

(٤) وعليهم أن لايناموا منبطحين على الأرض ، لكن عليك أن تصنع لهم المقاعد ، حتى إذا ما استلقوا فوقها أمكنهم أن يسندوا رءوسهم عليها .

(٥) وعليهم في أثناء الليل أن يلبسوا جلبابا بغير أكمام ، وأن يشدوا أوساطهم بحزام ، ويجب أن يعطى لكل منهم طاقية لغطاء رأسه . وعليهم أن يتناولوا العشاء الرباني في يوم السبت وفي أول يوم من الأسبوع (يوم الأحد) وطواقيهم فوق رءوسهم دون أن يكون عليها أغطية أخرى ، وعلى صدر كل طاقية منها صليب مشغول من القرمز .

(٦) وعليك أن تقسم الرهبان إلى أربع وعشرين مرتبة (أو درجة) ، وأن تميز كل مرتبة بحرف من الحروف الأبجدية اليونانية من الألفا إلى الأوميجا (أي من الألف إلى الياء) ، لكل مرتبة منها حرف .

هذه هي الوصايا الستة كما أوردها الأسقف بلاديوس في كتابه «بستان الرهبان» ، وقد عقب فيها الكاتب على الفقرة الأخيرة بما يفهم من منطوقه أن كل حرف يرمز به إلى صفة من الصفات تشترك فيها طبائع جماعة الرهبان الذين ينتمون إلى هذا الحرف أو القسم ، فالبسطاء في الروح مثلا يرمز لهم بحرف « ايتا » ، وصعاب المراس

والمعاندون يرمز لهم « اكى » وهكذا بحيث يستطيع رئيس الدير أن يعرف من هذا الوضع صفة كل راهب وطبيعته دون كبير عناء .

بعدئذ يذكر بلاديوس أن ملاك الله أضاف شفويا إلى ماجاء فى اللوح المكتوب أنه إذا جاء إلى الدير « راهب غريب يرتدى بزى مخالف لزيهم ، لن يدخل معهم إلى المائدة . وعلى الرجل الذى يبتغى قبوله راهباً فى الدير أن يكلف بالعمل اليدوى ثلاث سنين قبل أن يمنح (زى الرهبان فى هذا الدير) وحلقه الرأس (التى تميز هؤلاء الرهبان) أى حلق ذؤابة شعر الرأس فى المكان الذى يضعون عليه طواقيهم (Tonsure) . وعلى الرهبان إبان تناولهم الطعام أن يضعوا على رءوسهم القلانس التى تحجب رءوسهم ووجوههم حتى لا يرمقوا بعضهم بعضاً وهم يأكلون . وعليهم أن لا يتجاذبوا أطراف الحديث وهم على المائدة ، وأن لا يتطلعوا من جانب لآخر .

كذلك أمر الملاك باخوميوس أن يطلب إلى رهبانه ترديد إثنتى عشر مزموراً فى كل يوم ، وإثنتى عشر أخرى فى كل مساء ، وإثنتى عشر ثالثة إبان الليل ، وعند ما يتقدمون للطعام يرتلون المزمور الكبير .

ولكن باخوميوس الذى بهت من خفة الأعباء المفروضة على الرهبان قال للملاك إن الأجزاء التى عينتها للقراءة قليلة جداً . فأجابه الملاك قائلا : حقا إن الأجزاء التى عينتها قليلة ، وما ذلك إلا لكى يكون فى وسع الضعفاء من الرهبان تنفيذ القوانين دون أن يتقاعسوا عنها ، أما الرهبان الذين بلغوا الكمال فأن اجتهادهم لا يحدده قانون بأى حال ، لأن أذهانهم فى كل الأوقات متجهة نحو الله ، غير أن القانون الموضوع فلهؤلاء الذين لم تكتمل أذهانهم حتى يمكنهم أداء الفروض وعلى وجوههم بهجة » .

ومهما يكن من شىء فأننا ننقل هذه الأسطورة لا على سبيل الرواية الدينية . وإنما نظراً لما لها من الأهمية التاريخية الفائقة ، فقصة اللوح المكتوب والوصايا الستة وظهور الملاك بها لباخوميوس لاشك مستقاة من العهد القديم وقصص موسى والوصايا العشرة ، ولكن منطوق القواعد الرهبانية الواردة فيها هو ما نسعى لتسجيله ، لأن هذه النواة المبدئية هى الأساس الذى بنى عليه القديس باخوميوس قوانينه الهائلة التى أحدثت انقلابا هائلا فى الأوضاع الرهبانية المألوفة إلى ذلك الوقت ، وأثرت أبلغ التأثير فى توجيه الأجيال القادمة فى كل أقطار المسكونة ، لأنها أصبحت الأساس العظيم الذى ابتنى عليه الخلف الصالح تلك الأنظمة الديرية التى كانت الوسيلة الوحيدة الناجعة

للاحتفاظ بنور المدنية والحضارة فى عصور الظلام الأولى بعد انهيار الدولة الرومانية ونزول جحافل المتبربرين فى أكنافها بالغرب والشرق .

باخوميوس الذى عانى فى السنين الأولى من حياته الرهبانية كل ما كان يعانيه النساك والمتوحدون من الويلات ، انتفع بتجاربه الأولى المفزعة كل الانتفـــاع ، وتفتحت عيناه إلى ما فيها من أعباء مفزعة لا طائل تحتها ، وأدرك أن التقرب إلى ذات الله العلية ، وأن منجاة النفوس من شرور هذا العالم ، وأن كسب ملكوت السموات وجنة الخلد فى العالم الآخر ، أدرك أن كل ذلك لا يتحتم من أجله أن يُصْلِى الراهب نفسه ضروبا من تعذيب الجسد تفوق التصور .

حقاً إن باخوميوس كان جباراً مثل هؤلاء الجبابرة الذين كانوا يقضون عشرات السنين الطوال فى عقر كهف مظلم أو قبر مهجور أو غرفة مهملة ، فى بطن صحراء موحشة أو بربة مخيفة ، ولكنه كان إلى جانب ذلك إنساناً يتميز عليهم بسعة الأفق وتقدير الممكن والغير الممكن فى طبيعة البشر ، ولذلك ارتاع من هول ما كان يجرى فى أكناف الصحارى من ضروب البطولة التى لا تدعو اليها الحاجة ، ولا تحتمها قواعد الدين ، فثار ثورته الهادئة الناضجة على تلك التقاليد ، وبدأ فى وضع قوانينه التى أصبحت هدى ونبراسا يضىء الطريق للخلق العظيم من الرهبان ، فاهتدوا بذلك النور الساطع الجديد ، وازدحموا حوله زرافات ووحدانا من كل فج عميق . وعندما أسس ديره الأول قرابة دندره ، كان أول من تتلمذ عليه واهتدى بهديه ثلاثة من المتوحـــدين هم بسنتيسس (Psentaesis) وسوروس (Surus) وبشويس (Psois) . وما هى ساعة أوضحاها إلا وأتاه الرهبان من كل حدب وصوب للانضمام إلى هذه الحركة الجديدة ، مما يدل على أن العالم كان فى أشد الحاجة إلى هذا البعث الجديد فى تطور النظام الرهبـــانى الانفرادى ، وإلى تلك الحركة الديرية الاجتماعية المنظمة . فلما ضاق نطاق الدير الأول برهبانه ، أخذ باخوميوس فى تأسيس المؤسسات الأخرى فى منطقتى قنا وطيبة ، فهذا دير فى ببو (Pbau) ، وذاك آخر فى مونكوزس (Monchosis) ، وتلك أديرة أخـــرى فى ثيبيو (Thebeu) وبانوبوليس (Panopolis) وتاسى (Tase) وتسمانى (Tismanae) وباخنـــوم (Pachnoum) ولاتوبوليس (Latopolis) وهكذا امتلأت الصحراء بجماعات الرهبان الذين يحيون حياة اجتماعية إنسانية دينية على جانبى الوادى فى تلك المناطق من صعيد مصر .

ويمكننا دون كبير عناء أن نتصور العبء الثقيل الذى وقع على كاهل هذا الزعيم الأكبر كنتيجة لذلك التوسع المضطرد السريع فى هذا النظام من الحيـــاة الديرية ، فباخوميوس كان دائم التنقل من مكان إلى مكان واعظاً مرشداً منظماً . وبكثرة تلك المؤسسات أصبحت القواعد الأصلية التى أوردناها نقلا عن بلاديوس لا تكفى لضبط حكومة تلك الطائفة الكبيرة وذلك الجيش الهائل من الرهبان ، فجعل باخوميوس يزيد عليها ما تمليه الحاجة وما تتطلبه الظروف التى نجمت عن تغير الأحوال الديرية . وربما كان هذا هو السر فى أننا لا نجد قوانين باخوميوس فى دورها الختامى مكتوبة بأكملها فى مجموعة محبوكة الأطراف ، أو مرسوم شامـــل جامع مانع كما هو الحال فى قوانين القديس بندكت من القرن السادس بايطاليا ، لأن دستور الجماعات الباخومية ككل الدساتير العظمى لم يسبق الحوادث ، وإنما كانت نصوصه نتيجة طبيعية لمجابهة مانجم عن هذه الحوادث والتطورات . لذلك أصبح لزاما علينا أن نستنبط هذا الدستور العجيب مما لدينا من الأصول والتواريخ والآثار التى وصلتنا من الرحالة والحجاج الذين زاروا الأديرة الباخومية ودوّنوا فيها مشاهداتهم عنها ، مثل بلاديوس وهيرونيموس ويوحنا كاسيان وجيروم وغيرهم .

وأخيرا جاءت ساعة الرقاد الأبدى إلى هذا الزعيم الأكبر ، بعد حياة حافلة بجلائل الأحداث والأعمال . عندما وقع الطاعون فى مصر على ماقيل سنة ٣٤٨ ، وامتدت لهبه إلى الأديرة الباخومية تحصد الكثير من الأخوة ، فكان باخوميوس مثال الزعيم الحق ، يتنقل بين تلاميذه من المصابين عندما وقعت الكارثة بهم فى كل مكان ، لتمريض المرضى والمساهمة فى دفن الموتى ، ولتقوية الجميع فى إيمانهم بالصلاة ، غير مكترث بما يحفه من المخاطر ، حتى إذا مافات عيد الصعود من تلك السنة إلا وبدأ هو أيضا يشعر بأعراض المرض تهده هداً . فجمع أبناءه حوله وأوصاهم أن يتمسكوا بأهداب النظام الذى وضعه ، فلا يفتروا فى الصلاة أو العمل ، وأنه متى جاءت الساعة فلهم أن ينتخبوا من يشاءون لرياستهم ، ولكنه يقترح عليهم مجرد اقتراح أن يكون خلفه بترونيوس (Petronius) ، ويتضح من ذلك أن باخوميوس لم يكن مستبداً فى حكومته ، بل ديمقراطياً إذ ترك لجماعته حرية انتخاب من يرونه صالحاً لزعامتهم . وفى النهاية توفى باخوميوس يوم ١٥ مايو حسب التقويم اليونانى أو ٢٢ مايو حسب التقويم القبطى ، والغالب أن وفاته حدثت فى سنة ٣٤٨م وإن كان تحديد العام المضبوط لايزال فى نظرنا

موضعاً للبحث والتنقيب . وكان عمر القديس باخوميوس وقتئذ سبعة وخمسين عاما ، وهو عمر قصير جداً إذا قيس بأعمار الرهبان والمتوحدين الذى كانوا عادة يتوفون على القرن من الزمان . وبعد دفنه فى مكان معين من الجبل نقل جثته أحد تلاميذه سراً إلى بقعة غير معلومة تنفيذاً لوصيته حتى لايكون جسده محلا للتبجيل أو العبادة .

وقبل أن نتصدى لتحليل قوانين باخوميوس ، يجدر بنا أن نلقى بنظرة عاجلة على ماوصلت اليه أديرته من الاتساع فى حياته وبعد مماته إلى أوائل القرن الخامس ، وذلك من الاحصاءات التى وردت فى كتب الرحالة من هذا العصر .

بلاديوس ينبئنا بأن تلاميذ باخوميوس وأتباعه بلغوا ثلاثة آلاف فى أثناء حياته ، وسبعة آلاف فى سنة ٤٢٠م وهى السنة التى أتم فيها كتاب « بستان الرهبان » . ويوحنا كاسيان (Cassien) الكاتب الفرنسى الذى زار مناطق الرهبان المصريين حوالى نفس التاريخ يقدر عددهم بنحو خمسة آلاف راهب باخومى . ومن مؤلفات هذين الكاتبين نستنبط أن الدير الباخومى كان عادة يسكنه عدد يتراوح بين المائتين والثلاثمائة راهب ، ولو أن دير ببو (Pbau) كان يحتوى على ستمائة راهب حوالى منتصف القرن الرابع وما بين الف وثلثمائة وألف وأربعمائة راهب فى ختام ذلك القرن . وقد ذكر القديس جيروم (St. Jerome) الذى كتب فى عام ٤٠٤م أن عدد رهبان باخوميوس بلغوا آنئذ خمسين الف راهب ، وهو تقدير مبالغ فيه ، وإن كان يدلنا من الناحية التاريخية عن أن أتباع باخوميوس زادت أعدادهم زيادة هائلة بسرعة خارقة ، وأن تلك الزيادة المضطردة فى حياة باخوميوس هى التى حتمت عليه وضع أسس ثابتة قوية لذلك النظام نجمله فى الفقرات الآتية :

١ - شروط القبول :

كان على الشخص الذى يريد أن ينضم إلى دير من أديرة باخوميوس أن يقضى ثلاثة سنين تحت الاختبار ، لكى يثبت فى أثنائها قدرته على ممارسة حياة البتولة والطهارة والخضوع لاحكام القانون . وفى هذه الفترة أيضاً كان لزاما على المبتدىء أن يتعلم القراءة والكتابة ، وأن يحفظ عن ظهر قلب عشرين مزموراً من مزامير داود النبى فى العهد القديم ورسالتين من رسائل العهد الجديد ، فمتى تم له ذلك وزعت ملابسه على

الفقراء ، واستعيض عنها بالملابس الجديدة من الدير ، وسمح له بالانتقال من دار الضيافة الواقعة عند المدخل إلى قلالى الرهبان فى داخل الدير .

٢ - الملابس :

كانت تمتاز بالبساطة التامة ، فالراهب يرتدى قميصاً قصيراً من غير أكمام يصل إلى الركب ، وله حزام يشد به وسطه ، وعلى كتفيه وظهره علقت فروة من فراء الخراف أو الماعز (وكانت تعتبر من مميزات الرهبان فى ذلك الوقت) ، وفوقها عباءة خيطت بأعلاها قلنسوة الرأس التى كانوا يرسمون على جبهتها علامة الدير وهى عبارة عن صليب من مختلف الألوان للدلالة على المؤسسة التى ينتمى اليها الراهب ، وفى قدميه حذاء (صندل) مفتوح . وهذه الملابس بكاملها إنما كان يرتديها الراهب عند سفره خارج الدير فقط ، بينما كان وهو فى الدير يكتفى بارتداء القميص القصير والحزام والطاقية التى أشرنا اليها فيما سبق ، وكان القميص مصنوعا فى العادة من التيل الخشن ، وكان الراهب يسير عارى القدمين .

٣ - الطعام :

كان يقدم للرهبان فى قاعة المائدة مرتين فى كل يوم ، ومواعيد تقديمه فى الظهر وفى المساء ، ولكن لم يكن الحضور إلى القاعة الزامياً ، وبعض الرهبان المتقشفين كانوا يفضلون البقاء فى قلاليهم ولا يتناولون سوى دفعة واحدة من الخبز والملح والماء فى كل يوم عند غروب الشمس ، ولو أن باخوميوس لم يكن راغباً فى تشجيع الاسراف فى الزهد من هذه الناحية . والطعام عادة يتكوّن من الخبز والخضر والحساء والجبن والفاكهة ، فالرهبان الباخوميون إذن كانوا نباتيين لا يحل لأكل اللحوم عندهم ، كما أنهم كانوا لا يشربون النبيذ والخمر ، اللهم إلا إذا كانت ظروف الراهب المريض تدعو إلى التجاوز عن هذه القيود باعتبار اللحم أو الخمر من الأدوية اللازمة فى المرض . وكان الرهبان يدخلون قاعة الطعام حفاة الأقدام وهم لابسون القميص والفروة والعباءة والطاقية والقلنسوة ، ويأكلون ما يقدم اليهم فى سكون دون أن ينظر الواحد منهم ذات اليمين وذات اليسار ، وفى أعلى القاعة واحد من الأخوة يقرأ فصولا من الكتب المقدسة .

٤ - النوم :

القاعدة فى النظام الباخومى هى سكنى الرهبان ثلاثة ثلاثة فى كل قلاية من قلايات الدير ، وآثار القلايات الكاملة التى لانزال موجودة فى بقـــايا دير القديس سمعان (انبا هدرة) الواقع على التلال الصحراوية المواجهة لمدينة اسوان تدل دلالة واضحة على ذلك ، اذ نجد فى كل منها ثلاث مصاطب لها رأس مرتفعة مصنوعة من الطين على شكل وسادة . وفى الوصايا الست يرد ذكر المقاعد ذات المساند للرأس فى حالة النوم، وقد استنتج بعض الناس ان رهبان باخوميوس استعاضوا عن النوم الكامل بالغفوة على مقعد ، ولكننى اعتقد ان هذا التفسير يثير الشك فى ذهن الباحث ، ويغلب على الظن ان المقصود بالمقاعد التى فسرت حرفيا بالكراسى لم تكن سوى المصاطب التى تستند فيها الرأس على وسادة مبنية من نفس المادة التى عملت منها المصطبة، وذلك لأن باخوميوس اراد ان يخفف من اتعاب النوم الذى اعتاده النساك بالانبطاح ارضا وبدون اى مسند للرأس . ومهما تكن الحقيقة ، فلا شك ان الأخوة كان مفروضا عليهم ان لايناموا الا الهزيع الأول من الليل ، ففى الساعة السادسة التى هى منتصف الليل كان عليهم ان يقوموا للتسبيح والصلاة والتأمل الى ان يصبح الصبح ، وعليهم ان لايتجاذبوا اطراف الحديث داخل قلاليهم . وكان من المسموح لهم ان ينامـوا على سقوف القلالى فى ليالى القيظ الشديد .

٥ - العمل اليدوى :

كانت الأعمال اليدوية ، فى المؤسسات الباخومية ، اجبارية لايعفى منها اى راهب حتى رؤساء الأديرة انفسهم ، وكانوا يجلسون فى غير ساعات العمل المخصصة لادارة الأديرة للاشتراك فى الأشغال التى يزاولها بقية الأخوة مثل جدل الحصر والسلال من سعف النخيل . ويعد العمل اليدنى من المميزات الرئيسية التى خرج بها باخوميوس على المألوف عند النساك الأقدمين ، وذلك لحكمة مزدوجة : اولا ان العمل وسيلة لكسب القوت الضرورى للراهب الذى يجب ان لايكون عالة على المجتمع او على غيره من الناس، وثانيا لأن للعمل فوائده الروحية الكبرى ، فهو يشغل العامل عن التفكير فى الدنيا وشرورها . ومن الأعمال الشائعة بينهم على ماذكرنا صناعة الحصر والمقاطف من

سعف النخل وفتل الحبال من الليف ، يبيعونها جملة إلى سكان المدن المجاورة ، أو يستبدلونها بحاجات معاشهم ، أو يستعملون دخلهم منهـا فى الإحسان على الفقراء والبائسين . لكن الأديرة الباخومية كانت فى نفس الوقت وحدات مستقلة ، وقد دعا اتساعها ، وزيادة عدد سكانها إلى التشعب والتخصص فى الصناعات القائمة بها ، لكى يقوم كل دير بسد حاجاته ، وذكر بلاديوس أنه رأى فى أحد الأديرة المجاورة لمدينة بانوبوليس (Panopolis) خمسة عشر حائكا وسبعة حدادين وأربعة نجارين وإثنى عشر راعياً للجمال عدا المشتغلين بالحرث والزرع والعجن والخبز والطبخ وغيرذلك . ثم لايفوتنا فى هذا الصدد أن ننوه بوجود الكتاب والنساخ الذين تخصصوا فى كتابة الكتب ونسخ المخطوطات بمكتبة الدير ، وهـذا يقودنا إلى المسألة الحيوية التالية وهى مكانة العلم والتعليم فى أديرة باخوميوس .

٦ – التعليم :

وكان إلى جانب العمل اليدوى الشعبة الثانية من الثورة التى أحـدثها القديس باخوميوس على القديم . فبينما كان القدامى من المتوحدين يحتقرون القراءة والكتابة ولا يرغبون فى اقتناء الكتب ويتجنبون الدرس والتعليم ، عمل باخوميوس على تطليق هذه الفكرة من نظامه بصفة قاطعة ، فقضى على الأمية فى أديرته قضاء مبرما ، وجعل معرفة القراءة والكتابة شرطا من شروط الدخول فى الدير ولا بد على الراغب من تحصيلها فى سنى التجربة والاختبار الأولى . ثم أنه نظم ثلاثه دروس يومية فى ذلك عند الساعات الأولى والثالثة والسادسة من النهار للمبتدئين ، ودروسـاً أخرى عامة يعقدها رؤساء الأديرة بأنفسهم يومى الصيام الأسبوعى أى الأربعاء والجمعة فى تفسير الكتب المقدسة والتعاليم المسيحية ، وكان حضورها إجبارياً على كل الأخوة . بيدأنه لايستهوينا الكلام فى هذا الموضوع للمبالغة فى قدر التعليم والعلوم الإنسانية بالاديرة الباخومية ، لأن التعليم لم يكن مقصوداً منه أكثر من توفير الأدوات اللازمة للراهب فى قراءة الكتب المقدسة وكتب الصلوات وتاريخ الرسل والآباء والتعاليم الدينية البحتة . فالغرض من التعليم إذن كان دينيا قبل كل اعتبار وليس دنيـوياً بأى حال . ومهما يكن من شىء فان التعليم فى حد ذاته كان له أكبر الأثر فى السمو بالأديرة الباخومية وما شابهها من المؤسسات التى ظهرت فى القرون التالية فى مختلف البقاع والاقطار حتى

أصبح الكثير منها يعتبر من المراكز الممتازة فى عالم التعليم والعلم ، وأصبحت الأديرة بعدئذ الحصن الحصين الذى حفظت فيه مؤلفات آباء الكنيسة والآداب القديمة من عوادى الدهر على مر العصور . ومحتويات المكتبات الديرية كانت تتكون فى العادة من الكتب المقدسة ، وكتب الوعظ ، وأقوال الآباء ، ورسائل التأمل والتصوف ، وحياة القديسين ، والشروح ، وكتب الصلوات ، وغير ذلك من موضوعات الأدب الدينى ، ولكننا أحيانا نعثر بينها على القصص والتاريخ والأدب الذى هو على هامش الدين وبعض الدنيا بصلة بعيدة أو قريبة ، وكانت المكتبة مفتوحة على مصراعيها لكل قارىء يريد الاستفادة بما فيها .

٧ - العبادة :

وكان لها نظام ثابت ، كما كانت تنقسم إلى قسمين ، العبادة أو الصلاة الاجتماعية والعبادة أو الصلاة الانفرادية . أما الصلاة الاجتماعية فكانت تقام بالكنيسة مرات ثلاثاً كل يوم فى الصباح الباكر وعند الظهر وفى المساء ، ويحضرها الرهبان بكامل عددهم . أما الصلاة الانفرادية فكان أمرها موكولا للرهبان فى صوامعهم ، يتابعون فيها عباداتهم وتأملاتهم حسب اجتهادهم ، وعلى كل حال كان مفروضا على الراهب أن يصحو للصلاة من منتصف الليل إلى الفجر - ويحتفل بالقداس الالهى الكبير يومى السبت والأحد حيث يتناول الرهبان العشاء الربانى - أما الاسراف فى التعذيب والعويل وصرير الأسنان الذى كان جزءا من التعاليم الأنطونية فان باخوميوس لم يشجع رهبانه على مزاولته بالرغم من أنه لم يحرمه تحريما باتاً .

٨ - العقاب :

كان من لزوميات الجماعات الكبرى أن توجد القوانين الرادعة للخارجين على النظام أو المستهترين به ، ولذلك لم يجد باخوميوس بدأ من استعمال الشدة مع المخالفين حتى فى أتفه الأخطاء . وكان العقاب على درجات ، أما الدرجة الأولى فهى اللوم والتوبيخ العلنى والحرمان من وجبات الطعام الأخطاء الصغرى كالضحك أو النظر يميناً أو يساراً أثناء تناول الطعام ، والدرجة الثانية وهى العقاب البدنى أو الجلد بالسياط وحبس الراهب فى قلايته فكان من نصيب المتأففين والمتذمرين ومن على شاكلتهم ،

والدرجة الثالثة وهى الحرمان والطرد من الدير فكانت توقع على كل من يقترف جريمة من الجرائم الكبرى التى تعدو حد التذمر والتردد فى طاعة الرؤساء ولمن لا يرجى لهم صلاح .

٩ - الإدارة :

وفى تنظيمها الدقيق تتضح عبقرية باخوميوس النادرة ، ومقدرته الفائقة فى تأسيس حكومة ثابتة الأركان ، ذات دستور محبوك الحلقات . وقد قسم باخوميوس الادارة إلى قسميها الطبيعيين وهما الادارة المحلية لكل دير والحكومة المركزية لجميع الأديرة . وفى كلا الادارتين كانت الطاعة المطلقة أساس الدستور ، وقد ذكر لنا المعاصرون أمثلة عجيبة للتدليل على روح الطاعة العمياء بين الرهبان ، منها أن الرئيس إذا طلب واحداً من الأخوة وهو يكتب ترك القلم عند آخر حرف كان يكتبه وسارع إلى تلبية أمره ثم يعود إلى أكمال الكلمة التى لم يتم كتابتها . وذلك راجع بلا نزاع إلى تلك التعاليم التى اكتسبها باخوميوس وهو فى سلك الجندية الرومانية . أما الادارة المحلية للدير فكانت توكل إلى رئيسه ، ولكل رئيس نائب يساعده فى الاشراف على الأعمال اليومية العادية التى يتطلبها الدير ، ثم أنه كان لكل دير أمين لايزال حتى اليوم يدعى «ربيته» فى الأديرة القبطية ، وربما كانت هذه التسمية مشتقة من كلمتى «رب البيت» باعتبار صاحبها أمينا على خزائن الدير ومخازنه ، وللمكتبة أيضا خازن وكان من النساخ عادة ، وهنالك المعلمون والخبازون والنجارون والبناؤون والحدادون والزارعون والناسجون والجمالون وغيرهم من الفئات التى تتطلبها ظروف الحال فى كل دير حسب المنطقة التى يكون فيها ، ولكل من هذه الفئات رئيس يشرف على عملها تحت رعاية رئيس الدير أو نائبه ، ولما كثر الرهبان وتنوعوا فى الأديرة الباخومية قسموا إلى أسر وكل أسرة منها تضم رهبان أمة معينة ، ومن المعلوم أن حياة الشركة فى تلك الأديرة اجتذبت الرهبان من أمم متباينة مثل السريان واليونان واللاتين وغيرهم ، وكان لكل أسرة معلم من جنسها يقوى على التفاهم مع أبناء جلدته وإرشادهم ، ومن الجائز أن هذا النظام هو الذى ورثته الجامعات فى العصور الوسطى حيث انتشر فى رحباتها نظام الأمم ، وكان منها فى جامعة باريس خمس أمم تشمل الفرنسيين والانجليز والنرمنديين والبيكرديين والنرمان والبريطان ، وربما أخذ عن هذا النظام أيضا نظام الأروقة الذى ساد الجامعة الأزهرية إلى عهد قريب مثل أروقة

الصعايدة والبحيرة والمغاربة والشراقوة والأحباش وغيرهم . ثم أن باخوميوس قرر أن الدير الذى يعتبر وحدة قائمة بذاتها لايجب أن يكون فى معزل عن الأديرة الأخرى. وهنا يبدأ نظام المركزية الدقيق ويتدرج إلى أن يصل به إلى الادارة البيروقراطية العليا فى الدير الرئيسى الذى يقيم فى رياسته أب الشركة أو الرئيس الأعلى وهو خليفة باخوميوس . وكان كل ثلاثة أو أربعة من الأديرة المتقاربة يكونون مايسمى بالقبيلة ، ويشترك رؤساؤها فى انتخاب واحد من بينهم ليكون زعيما لتلك القبيلة ، وهم يجتمعون من وقت لآخر للتشاور فيما يلاقونه من صعاب وفيما يهمهم من الأمور . وجميع الرؤساء وزعماء القبائل يخضعون خضوعا تاما مطلقاً لارجعة فيه ولا نقاش ولا استئناف للرئيس العام ، وإشراف هذا الرئيس العام يأتى عن طريقين ، الطريق الأول هو الزيارة، وكان باخوميوس دائم الحركة دائم التنقل بين أديرته للتفتيش عليها والعلم بدقائق أحوالها ، ولا شك أن بترونيوس الذى خلفه فى الرياسة بعد مماته ثم من تلاهما من الرؤساء كانوا ينسجون على منوال أبيهم الروحى الأكبر . والطريق الثانى مركزى يتلخص فى عقد اجتماعين عامين فى كل سنة ، وكان جميع رهبان المؤسسات الباخومية يحضرون هاتين الجمعيتين فى الدير الرئيسى فى ببو (Pbau) أو دير الرياسة العليا إذا انتقلت منه اغيره . وتحدد للاجتماع الأول موسم القيامة للاحتفال بعيد الصعود وهو من أهم أعياد القبط إن لم يكن أهمها قاطبة ، والاجتماع الثانى يقع فى الثانى والعشرين من شهر مسرى من الشهور القبطية وهو يوافق الثالث عشر من شهر اغسطس ، والغرض من هذا الأخير بحث حالة الأديرة الداخلية والخارجية وتقديم التقارير الخاصة بكل دير منها ، وبعد طرح مسائل الأديرة على بساط البحث ومحاسبة كل رئيس عما قدمت يداه فى أثناء العام المنصرم ، يقرر المجلس السياسة العليا العامة التى يجب على الرؤساء اتباعها لحسن سير العمل والنظام والعبادة فى جميع الأديرة ، ثم يعلن الرئيس العام أسماء الرؤساء الفرعيين الجدد كما يعلن التنقلات بين رؤساء مختلف الأديرة ، وأخيراً فى جلسة ختامية يحضرها الرهبان قاطبة ، تعقد فيه صلاة جامعة ، وفى مشهد رهيب مؤثر يعلنون مغفرة الخطايا والصفح العام عن ذنوب المذنبين ، ويبارك الرئيس الأعلى جميع الحاضرين .

هذا هو مجمل قوانين باخوميوس التى حاولنا أن نجمعها فى صعيد واحد ، ولكن

من العبث الادعاء بأن هذا هو كل ماينطوى عليه ذلك النظام ، فان هنالك موضوعات صغرى لا يتسع المقام لاحصائها . خذ مثلا العناية بالمرضى والضعفاء ، فقد خصص لهم نظام باخوميوس الانسانى موضعا يجمع فيه شملهم ، ويوليهم من العناية ماهم أهل له ، فيعفيهم من قيود الطعام المفروضة على عامة الأخوة ، ويعودهم الأطباء الجثمانيون والروحيون للاشراف على حالتهم . ثم موضوع الزوار والأغراب والحجاج وكان يوجد منهم بلا شك سيل متواصل على اديرة باخوميوس ، وكانت القاعدة السائدة فى الأديرة هى الترحيب بضيوفهم ومعاملتهم بالحسنى والاكرام ، فيقابلهم الرهبان ويغسلون اقدامهم ، ويقدمون لهم الطعام والشراب اللازم لهم ، كل ذلك فى بيت الضيافة الملاصق لمدخل الدير وداخل جدرانه بدون أن يكون على اتصال برحباته وقلالية الداخلية المخصصة للرهبان . وخلاصة المقال ان حياة الشركة كانت فتحا جديداً مبينا فى تاريخ الرهبانية ، اصولها الرئيسية هى البتولة والطهارة وحياة الفقر والطاعة والعبادة والعمل اليدوى والأخذ بقسط من التعليم وقبس العلوم الدينية . وكان هذا النظام العجيب الكامل مظهراً رائعاً للحكم الرشيد المستنير فى زمن كانت الفوضى ضاربة اطنابها فى ارجاء الامبراطورية الرومانية التى اخذت هيبتها فى الزوال والتدهور ، وحل فى ارجائها محل السلام الرومانى ذلك التخبط الذى اصطحب بغزوات المتبربرين فى القرن الخامس الميلادى .

كانت تلك الأديرة الباخومية مثلا اعلى فى الأمن والسلام والنظام والحياة الراضية ، فى عالم منهار ملأه الفزع والفوضى ، وشمله القنوط والدمار . وكان إذن اتجاه انظار الناس إلى هذه المؤسسات التى هرعوا اليها بالمئين والآلاف امراً طبيعياً فى ذلك العصر الذى سادته الروح الدينية ، واخذ الفكر المسيحى فيه على الخلق قلوبهم والبابهم . وكان كل دير من هذه الأديرة عبارة عن حصن زاخر بالحركة والنشاط ، تحيط به الجدران الرومانية السميكة الشاهقة التى تبلغ حوالى الثلاثين مترا فى الارتفاع ، لحماية سكانه من غارات التفتيش التى كان يشنها عمال الحكومة عليهم فى زمن الاضطهاد ، ومن عدوان المعتدين من عصابات النهب والسلب التى كانت تموج بها فلول الوادى . ومدخل الدير ليس إلا فتحة مستطيلة صغيرة لا يستطيع اكثر من رجلين او ثلاثة اقتحامها دفعة واحدة ، فضلا عن كونه محصنا ببابين من افلاق الخشب الكثيفة المبطنة بألواح الحديد والمسامير ذات الرءوس الغليظة زيادة فى التحفظ ، وعلى قمة السور يمشى داخلى

طويل للحراس والخفراء ، وفوق البـــاب فتحة يطل منها البواب عندما يدق ناقوس الدير إذا طرقه طارق بواسطة حبل قد تدلى إلى الخارج لهذا الغرض . وبجانب الباب فى ملاصقة السور من الداخل بيت الضيافة لايواء الغرباء الذين لم يسمح لهم بالتنقل فى رحبات الدير الداخلية المخصصة للرهبان والتى كان بها عدد كبير من المبانى المختلفة ، أهمها الكاتدرائية الكبرى عدا الكنائس الصغرى ، وقاعة الاجتماعات المخصصة للجامع وللاستقبال والدروس العامة ، والمكتبة ، وغرفة المائدة وكانت عادة مستطيلة تتوسطها المائدة الطويلة وعلى جانبيها أحيانا دكتان طويلتان وكل هذه بنيت من الحجر المنحوت خصيصاً لهذا الغرض ، والمطبخ الرحيب ، والأفران ، ومخازن الغلال والملح والملابس وغير ذلك من الأدوات ، والصوامع أو قلالى الرهبان وكان عددها كبيراً تقام إلى جانب السور فى صفوف طويلة ، وفى الدير مساحة واسعة خالية من المبانى تزرع فيها الأشجار والبساتين ، ويجلس فيها الرهبان لمزاولة الأعمال اليدوية مثل صناعة الحصر والسلال وغيرها ، وبها آبيار المياه تقام عليها السواقى والشواديف ، وحظيرة البهائم المستعملة فى الحرث والزرع وإدارة السواقى . وفى قلب الدير وسط هذه المبانى حصن مربع شاهق متصل مع سقف أحد المؤسسات الأخرى بقنطرة متحركة من دور من أدواره العليا ، يلتجىء اليه الرهبان وقت الضرورة القصوى عندما يقتحم الدير ، وفى هذا الحصن كنيسة ومخازن للطعام المجفف المحفوظ بها وبئر للارتواء منه عند الحصار . وكل هذه الأجزاء لاتزال واضحة فى الأديرة الرومانية العامرة بأرض مصر .

* * *

٥ – الانبا شنوده ونظامه

لانزاع أن العالم يدين بالفضل الأكبر فى تأسيس حياة الشركة على ذلك الوجه الإنسانى للقديس باخوميوس . ولكن من الخطل أن يظن أن مصر حتى فى هذا العصر المتقدم كانت خلوا من الأديرة إلا ماأنشأه باخوميوس . ذلك لأن الحركة الديرية كانت قد بدأت جذورها تمتد فى مختلف البقاع بالديار المصرية ، وكان نموها أمراً طبيعياً للأسباب التى أوضحناها ، وقد ظهرت معالمها بأشكال متنوعة بالرغم من أنها لم تبلغ درجة الكمال والدقة والنظام الذى يرجع لعبقرية باخوميوس . مثال ذلك ماحدث فى وادى النطرون حيث أخذ أتباع آمون وأبى مقار وغيرهما من القديسين

فى إنشاء الأديرة التى لايزال شاخصا من بينها أربعـــة أديرة تعتبر من درر الصحراء الغربية هى دير البراموس وأنبا بشوى والسريان وأبى مقار. ولا شك أن للصلة الدائمة بين قديسى هذا العصر أكبر الأثر فى ازدهار الحركة الديرية. ونحن نعلم أن باخوميوس زار آمون فى وادى النطرون، وأن أبا مقار الكبير زار باخوميوس فى الصعيد الأعلى، وكانت زيارة هذا الأخير خفية، ولكن أمره لم يخف على باخوميوس إذ شاهده وهو يصوم أربعين يوما كاملة، فأدرك أنه لايستطيع إتيان هذا الأمر العظيم إلا أبو مقار. وهذا التزاور بين أولئك القديسين كان بلا غرو مصدراً لتبادل الأفكار واقتباس المبادىء والتعاليم والمثل العليا، مما أثر تأثيراً مباشرا على نشر حياة الشركة فى درجات مختلفة بين مختلف الجماعات الرهبانية التى سكنت القفار والصحارى.

وكان من بين هذه المراكز العديدة مركز آخر على جانب عظيم من الأهمية والخطورة فى تاريخ الديرية والقومية المصرية على السواء، ولازال مع الأسف هنالك قصور فى البحث والتنقيب فى مختلف مناحيه، ومعلوماتنا بتفاصيله إذا قيست بما نعلمه عن الجماعات الباخومية سطحية وتافهة لأسباب سنجملها فيما بعد. وهذا المركز الجديد كان يقع فى قرابة سوهاج أو بالأحرى قرب بانوبوليس وهى مدينة أخميم الحالية حيث أنشأ الأنبا شنوده نظاما اجتماعيا شبيها بحياة الشركة لدى باخوميوس، غير أنه كان أشد عنفا أو أقل إنسانية من نظام زميله ومعاصره فى منطقتى طيبة وقنا. وشنوده كان رجلا شديد المراس بالطبع، وكان من أئمة العاملين على تهذيب اللغة القبطية، وآدابها الدينية من التأثيرات البيزنطية. وهذه الحركة فى الواقع جزء من حركة أوسع منها بدأت فى حجر الكنيسة القبطية، وتتلخص فى يقظة الوعى القـــومى المصرى، والعمل على تحقيق استقلال مصر من الناحية الدينية عن القسطنطينية، تلك الحركة التى أخذت فى الاضطراد حتى شملت الحياة الاجتماعية المصرية، وتطورت فى النهاية إلى درجة الطموح إلى الاستقلال السياسى عن الدولة البيزنطية. ومن ذلك يتضح أن شنوده كان لحد ما من بناة أول مشروع استقلالى لهذا الوطن منذ انهياره فى عهد الوثنية القديمة على يد قمبيز الفارسى سنة ٥٢٥ ق. م.

والأنبا شنوده كما ذكرنا عاصر الأنبا باخوميوس فى أثناء سنى نسكه الأولى. ولد فى سنة ٣٣٣ وتوفى عند ظهر اليوم الثانى من أيام شهر يوليه سنة ٤٥١ م، وكان قد طعن فى السن وبلغ الثامنة عشرة بعد المائة، ذلك بالرغم من إغراقه فى التقشف

والعيش على الكفاف . ويلوح للباحث أنه لم يرض عن نظام باخوميوس كل الرضى، فاعتبر أن فيه تساهلا كبيراً . ومع احتفاظه بتعاليم الشركة أدخل عليها من التعديلات ما جعل حياة الأخوة فى رعايته أصعب وأشد مما كانت عليه الأوضاع المقبولة عند باخوميوس . وكان شنوده يعادى كل شىء بيزنطى ، وهذا يفسر لنا موقفه العنيف من نسطوروس والحركة النسطورية فى القسطنطينية ، كما يفسر لنا الفرق الهائل بين مؤسساته ومؤسسات باخوميوس من زاوية أخرى ، إذ بينما كانت هذه الأخيرة دولية فى طابعها يقصدها المصرى والبيزنطى واللاتينى والفلسطينى واللبى والأفريقى على السواء ، أصبحت الأولى قاصرة على المواطنين من الرهبان المصريين الأقباط فحسب . وهذا الوضع الضيق يوضح لنا أيضا قلة المعلومات التى أشرنا اليها فى كتب الرحالة والحجاج الذين درجوا على زيارة مؤسسات الآباء المصريين فى أقصى القفار المصرية ، لاسيما بلاديوس الذى لم يورد فى كتاب « بستان الرهبان » أى إشارة للأنبا شنوده أو جماعاته الرهبانية. وليس من المعقول أن بلاديوس كان جاهلا بوجودها، وأغلب الظن أنه لم يستسغ مبادئها ، فآثر أن لا يتعرض للكلام عنها وعن مؤسسها.

ومن الغريب الذى لا نستطيع إيضاحه أو تعليله ، هو أنه بالرغم من موقف الأنبا شنوده القومى البحت ، تقف امبراطورة بيزنطية عظيمة موقف الصدارة من تخليد ذكراه ، وتدعيم نظامه، ورعاية أتباعه. تلك هى الامبراطورة هيلانه زوجة الامبراطور قسطنطين الكبير ، فقد ابقت له « الدير الأبيض » الذى لا تزال كنيسته موجودة وتقام فيها الشعائر الدينية حتى يومنا هذا ، والذى أصبح المركز الرئيسى لجماعات الأنبا شنوده . فهل كانت الأمبراطورة بهذا العمل تريد استمالة باخوميوس إلى القسطنطينية؟ أو هل كانت حركة شنوده لم تزل فى عهدها الأول غير واضحة الاتجاهات والنوايا التى تتعارض مع الميول البيزنطية ؟ هذا ما لا نستطيع الأجابة عليه إلى الآن ، والمستقبل وحده كفيل بجلاء الغموض الذى تنطوى عليه قوانين أنبا شنوده وعلاقاته الدقيقة مع من عاصره من الحكام .

* * *

٦ — الأنظمة باخوميوس

فى العالم المعاصر وفى التاريخ

ليس من العجب بعد ما أوضحناه أن يذيع صيت باخوميوس ، وأن تنتشر قوانينه فى الديار المصرية وفيما وراء حدود مصر . فإننا نجد الأديرة الباخومية تمتد من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال فى طول الديار المصرية وعرضها. وهذا هو دير القديس سمعان (الأنبا هدرة) لازالت آثاره شاخصة فى مواجهة مدينة اسوان ، بالرغم من أن صلاح الدين الأيوبى أعمل فيه معاول الهدم سنة ١١٧٢ م ، كما يقال إن قرابة مدينة كانوب عند مصب فرع الدلتا الكانوبى على ساحل الاسكندرية الشرقى كان يوجد دير باخومى زاهر ، وهذا هو معبد أبو صير القديم على مسيرة عشرات من الكيلومترات على ساحل البحر الأبيض المتوسط غرب الاسكندرية فى منطقة مربوط وقد حوّله النساك إلى دير جليل فى العصر الرومانى مازالت آثار قلاليه وصوامعه قائمة بجوار أسواره من الداخل ، وأسس كنيسته فى رحبة المعبد الوسطى منظورة ملموسة . ثم ان القديس باسيليوس الكبير اليونانى الأصل وصاحب النظام الديرى الذى يقترن بمؤسسات جبل آثوس فى بلاد اليونان ، إنما يرجع الفضل الأول فى تعاليمه وفى إدخال الأنظمة الجديدة بتلك البلاد إلى باخوميوس ، ومن المعلوم أنه عاش عدة سنين فى أديرته بالصعيد وأنه تتلمذ عليه .

يلاحظ كذلك أن القديس أثناسيوس الكبير بطريرك الكنيسة السكندرية قد حمل التعاليم الباخومية إلى أوربا الغربية فى رحلتيه المعروفتين عندما نفى عن الاسكندرية، ولا سيما فى رحلته الثانية عندما نفاه الامبراطور قسطنطين إلى روما ، حيث قضى هنالك القدر الأكبر من الفترة الواقعة بين سنة ٣٤٠ وسنة ٣٤٦ ، وفى هذه المرة الأخيرة عرض على البابا يوليوس الأول أسقف روما نتيجة الأعمال الهائلة التى كان باخوميوس يقوم بها فى مصر، فكانت موضع الأعجاب والتقدير، وبذلك مهد للاقتباس من قبسها ، والهدى بهديها . كما أن القديس جيروم (St. Jerome) ترجم قوانين باخوميوس وآثاره إلى اللغة اللاتينية فى عام ٤٠٤ ونشره بين الرهبان الايطاليين ، بينما نقل يوحنا كاسيان فى أثناء النصف الأول من القرن الخامس حياة الآباء المصريين

وأقوالهم وأقاصيصهم وأنظمتهم فى أربعة مجلدات لاستعمالها بين الرهبان المقيمين فى قفار غرب أوربا وعلى وجه أخص أولئك الذين كانوا يسكنون جنوب بلاد الغال (فرنسا) . ثم أنه حاول فعلا تطبيق تعاليمهم فى الدير الذى أسسه فى مدينة مرسيليا على ساحل فرنسا الجنوبى .

وهنالك راهب غربى آخر يدعى ديونيسيوس الصغير المتوفى سنة ٥٤٥ (Dionysius Exignus أو بالفرنسية Denys - Le-Petit) ترجم إلى اللغة اللاتينية تاريخ حياة باخوميوس وقصة انظمته وقوانينه عن اللغة الأغريقية فى أثناء النصف الأول من القرن السادس . وهذه الترجمة وإن لم تكن مصدرا من الطراز الأول لتاريخ حياة الشركة ، إلا أن وجودها وتداولها مع غيرها من التراجم السابقة فى أوربا ليدلنا دلالة واضحة على مدى انتشار الافكار الباخومية والتمهيد لإدخالها فى النظم الرهبانية بالغرب لاسيما وأن أوربا كانت وقتئذ على عتبة قيام حركة الديرية البندكتية .

وربما كان أبقى آثار قوانين باخوميوس وأهمها فى أوربا هو ذلك الأثر الذى انطبع به نظام الديرية البندكتية . وإذا كان القديس باخوميوس قد عمل على تكييف الحياة الرهبانية على أسس اجتماعية تتفق وظروف مصر فى القرن الرابع ، فإن بندكت اقتفى أثر سلفه فى وضع قانونه الجديد لكى يناسب أحوال ايطاليا فى القرن السادس. ودير مونت كاسينو (Monte Cassino) فى أواسط ايطاليا لايكاد يختلف اختلافا بيناً فى مجمله عن أديرة قنا فى الصعيد الأعلى . ولا يتسع المجال هنا لمقارنة تفاصيل قوانين وانظمة هذين القديسين ، لأن ذلك موضوع دراسة خاصة مطوّلة ، ولكن مايعنينا هنا فى هذا الصدد هو أثبات مايدين به القديس بندكت للقديس باخوميوس من حيث اقتباس الكثير من أفكاره فى حياة الشركة وفى النظام والعمل اليدنى والعقلى والطاعة المطلقة للرؤساء وتثقيف الرهبان إلى جانب الشروط الأصلية فى الحياة الرهبانية كالبتولة والطهارة والفقر ، وقد قيل ان الأول نقل فى بعض الأحيان نقلا حرفياً من قوانين الآخر . ونظراً لما كان يتمتع به بندكت بين اللاتين من مركز ممتاز ، فقد انتشرت التعاليم الباخومية عن طريقه فى أوربا انتشاراً واسعاً وسريعاً ، ومنذئذ أخذ التاريخ الرهبانى فى الغرب صبغة مصرية جديدة هى صبغة إنسانية وروحية فى نفس الوقت .

غير أن حياة الشركة التي يرجع تأسيسها وتنظيمها إلى القديس باخوميوس في القرن الرابع لم تقتصر آثارها على الديرية البندكتية في القرن السادس ، وانما تعدتها إلى أوربا في جملتها خلال القرون الوسطى التالية . وإن للباحث في زوايا التاريخ الأوربي بالقرن العاشر أن يتساءل بحق عما إذا كانت تعاليم باخوميوس قد أثرت تأثيراً مباشراً في حركة الاصلاح الكلوني (نسبة إلى Cluny الواقعة في فرنسا على مقربة من حدود ألمانيا) ، تلك الحركة الكبرى التي كان لها أثرها الدائم في توجيه المدينة في العصور الوسطى ، وفي إحياء تلك الروح الفذة التي هدمتها النزعة الانفصالية والاستقلال الذاتي بين مؤسسات القديس بندكت ، إذ أن قانون بندكت الأصلي كان قد تجاوز عن النصوص التي ربطت مختلف الأديرة الباخومية برباط واحد ، حتى يتم التعاون بينها ، وحتى يصلح المحسن بينها من زلة المسيء . وكان هذا التجاوز مصدر الزلل والتدهور في كثير من الأديرة البندكتية ، لذلك عمد آباء كلوني الى الاستيحاء بوحي الماضي البعيد من تعاليم باخوميوس في توطيد أواصر الصلات بين الأديرة الكلونية ، فجعلوا من رئيس ديرهم الأصلي زعيماً وراعياً ورئيساً عاماً يخضع لسلطانه رؤساء الاديرة الفرعية قاطبة ، ويدينون له بفروض الطاعة المطلقة . ثم أنهم لم يقتصروا في اصلاحهم على ذلك ، بل قرروا عقد اجتماعين سنويين لجميع الرؤساء بقصد الشورى في أمورهم ، وتقديم التقارير عن أعمالهم في أديرتهم ، وإسداء النصح المتبادل بين رئيسهم الاعلى وبينهم ، ورسم السياسة العليا التي يسيرون بمقتضاها في عامة أعمالهم والكلونيون في كل هذا يذكروننا بأحداث القرن الرابع وبقوانين باخوميوس وأنظمته التي تحمل أوجه الشبه العجيبة لها . وان هذا العجب ليتضاءل أو يبطل اذا تذكرنا أن المؤلفات اللاتينية التي كتبها يوحنا كاسيان والقديس جيروم وغيرهما عن آباء الصحراوات المصرية وعن قوانين باخوميوس وأنظمته ظلت منتشرة تتداولها أيدي الرهبان المتعلمين في بلاد (غاله) التي هي منبت الحركة الكلونية خلال القرون الوسطى ، فكان طبيعياً أن يرجع المصلحون في الغرب الى ماجاء بها من تعاليم الأوائل والأخذ بها .

وليس من العبث او البهتان أن نقول إن حركة قيام الجماعات الرهبانية الجديدة المحكمة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر مثل اخوان جراندموت (Grandmont) والكارثوزيان (Carthusians) والسسترشيان (Cistercians) وغيرها كثير انما جاءت في أثر الحركة الكلونية ، كما تلاها في عهد لاحق جماعات الفرنسسكان والدومنيكان

التى لايزال فضلها معروفا الى اليوم . ليس من العبث والبهتان أن نقول ان تلك السلسلة من أولها لآخرها يمكن اقتفاء أصولها ومنابعها فى وحى باخوميوس المصرى . واذا سلمنا بذلك ، أصبح لزاما علينا أن نسلم أيضاً بأن النهضة الأدبية الفكرية الأولى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، تلك النهضة التى تقترن بقيام العلوم الإنسانية ونشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، انما هى أثر من آثار تلك الهيئات الديرية التى يرجع تكوينها فى الأصل الى عبقرية باخوميوس .

واننا اذا أمعنا النظر فى تاريخ الرهبانية العام على ضوء هذه الحقائق ، لأدركنا فى وضوح تام أن مصر التى ولدت هذه الحركة الإنسانية الهائلة فى صحراوائها وقفارها ، إنما ظلت تهيمن على كل ماتلاها من حركات الإصلاح الديرى بأوربا قرنا بعد قرن زهاء العصر الوسيط ؟

عزيز سوريال عطيه

مطبعة مسينس
تليفون ٢١٩١٢ اسكندرية

A.U.B. LIBRARY

DATE DUE

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

00304566